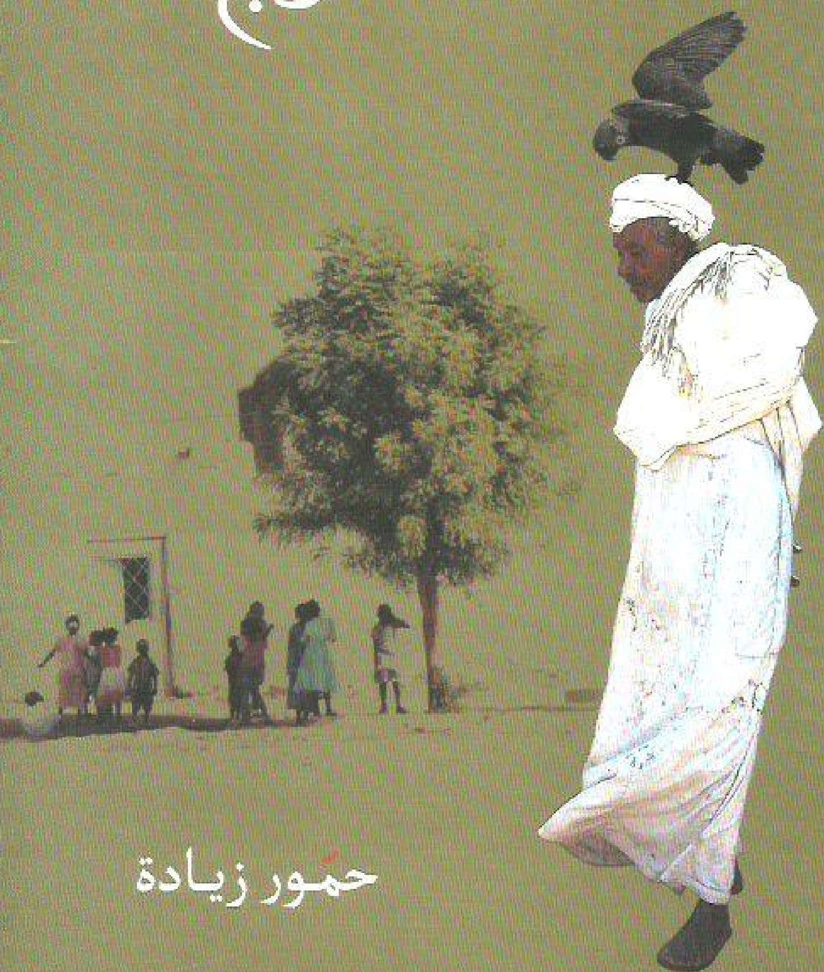
الكونج

رواية



حمور زيادة

ميريت

الكونج

الكونج

رواية

حمور زيادة

الطبعة الأولى ٢٠١٠.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.org

merit56@hotmail.com

الغلاف: سعاد عبد الرسول

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢١٥٤٠/٢٠١٠

الترقيم الدولى: 978-977-351-552-7

حمور زيادة

الكونج

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠١٠

بَعْضُ الشُخُوصِ والأحْدَاثِ التاليةِ حَقِيقي ،
و بعْضٌ محْضُ خيال.
لذَلكْ هِي مُجَرد رِوَايةٌ.

حمّور زيادة

أرغب إليكم حينما تقصون قصتي في رسائلكم أن تذكروني بحقيقتي لا بمزيد ولا بنقصان وألا تدخلوا فيها شيء من المكر السيئ

عطيل

[...]

بين سراديب الظلام سرى.

تقدم نحوها في تصميم. كانـــت تحلـــم بأضـــغاث وتهـــاويم مختلطة.

السكين نزلت على حنجرتها. تمهلت. ثم ارتدت في عنف.

أصدر حلقها شخيراً وقرقر الدم.

تحركت السكين مرة أخرى. عوت الكلاب في مكان ما.

مواكب الموتى جاءت عجلة. احتشدت حول السرير.

صوت النخير.

مد كفيه وأمسك الرأس.

طقطقت عظام الرقبة.

الدم يرشح كأنه نافورة لزجة.

رائحة صدئة.

رفع ركبته وضغط بها الكتفين.

أدار الرأس في قوة

سمعت النجوم فرقعة الرقبة.

مشت السكين مرة أخرى.

الجلد لين مرن كما لم يتوقعه.

لكنه يتمزق تحت رجع النصل الحاد.
لم تعد لها أحلام.
انتهت هنا.

[١]

الذين سمعوا الصرخة العالية التي أطلقتها ***رضوة جبريل*** لم يفكروا إلا أن زوجها يضربها مرة أخرى.

و رغم أن بعضهم فكر برهة إن الوقت مبكر جدا على أن يقوم ***السربلة*** بضرب زوجته لكنهم سريعا ما استدركوا أن *رضوة* لا تعجز عن ارتكاب ما تستحق العقاب بسببه في أي وقت.

الصرخة الأولى التي أطلقتها *رضوة* لم تكن مسموعة إلا في قلة من البيوت القريبة. فربما بسبب الفزع أو أنها لم تدرك بعد بدقة ما حدث فإن صرختها خرجت – رغم علوها – مكتومة إلى حدٍ ما؛ إذ كانت *رضوة* تملك في جعبتها صرخات أعلى من تلك الأولى أطلقتها بعد دقائق

و رغم أن الوقت كان فجراً بعد، والسماء تكتسي ذلك الضوء الأغبش الذي يسبق شروق الشمس ولم يعم ***قرية الكونج*** ضجيجها النهاري المعتاد، إلا أن أصوات البهائم المهتاجة في زرائبها غطى على صراخ المرأة الفزعة فلم يسمعها إلا قليل من الناس في البداية.

نور الدايم أقرب الجيران للمنزل المتربع أعلى ربوة وحيدة ويقع منزله أسفل منه مما كان سبباً لمشاجرات كثيرة بينه و*السربلّة* بحجة اطلاع *السر* على "حريمه "سمع الصرخة وهو ينحني خارجاً من المطبخ الطيني البناء.

فرغم أن *نور الدايم* كان قد جنا في السنوات الأخيرة شيئا من المال مكّنه من بناء سور من الطوب لبيته وتشييد *صالون* مسقوف *بالاسمنت* وشراء ثلاجة تعمل بالجاز الأبيض إلا أنه احتفظ بالمطبخ الطيني على حاله استجابة لإصرار ***حد** الزين* زوجته.

كعادته عند كل فجر كان *نور الدايم* قد انتهى من حلب أغنامه وتركها تثغو وعاد إلى البيت حاملا اللبن في إناء محكم الإغلاق مصنوع من *الاستيل* اللامع اشتراه من المدينة قبل أشهر تماشيا مع طفرته المادية الجديدة.

وضع الإناء الملئ باللبن قرب زوجته وتناول فرشاة أسنانه الخضراء التي اهترأت حتى كادت تصبح صلعاء تماما من موضعها المعتاد في شق بين أخشاب الباب والحائط الطيني وانحنى خارجا من المطبخ. كان مغتماً متعكر المزاج كما اعتاد الاستيقاظ كل يوم، فلم يتبادل مع زوجته غير جمل قصيرة لا معنى لها ولا اهتم بثرثرتها التي لا تنقطع.

و ما أن تجاوز باب المطبخ حتى سمع صرخة رضوة *جبريل*.

حد *الزين* زوجته باعتبارها الجارة الأقرب للبيت المنكوب والصديقة الأخلص *لرضوة* إضافة إلى القرابة البعيدة التي تجمعهما كانت تحكي بعد ذلك في كثير من الأهمية، اكتسبتها لوضعها هذا، أن زوجها انتصبت قامته في موقفه لحظة كأنه يقف في صف الصلاة.

من مكانها داخل المطبخ كانت ترى ظهره وقد استقام حتى بدا كنخلة فتية أحسن أصحابها العناية بها. جزعه القوي شمخ متماسكا كأن عضلات جسده كلها قد استفزت للصرخة التي سمعها. ثم بعد برهة سمعته حد *الزين* يتمتم في غيظ **أتمنى أن يصبح *السر* رجلاً هذه المرة ويقتل العاهرة**

حد *الزين* ستدعي بعد ذلك وهي تحدث نسوة القرى المجاورة في كثير من الفخر والأهمية أن جسدها اقشعر لفكرة القتل في هذا الصباح الباكر واعتقدت أنه فأل سيء أن يبدأ زوجها يومه بأمنية شريرة كهذه.

عندما تكررت صرخة *رضوة* مرة ثانية ثم توالت الصرخات في هستيريا فكرت حد *الزين* أن أمنية زوجها ربما كانت قابلة للتحقق للمرة الأولى في تاريخ أمانيه.

فصراخ *رضوة* كان صراخ من يواجه الموت.

حد *الزين* حين تحكي هذه الأشياء لن تترك انطباعاً لدى المستمعات أنها تحسرت أو حزنت. لأنها ستحكي هذا الموقف بكثير من التفاخر والخيلاء رغبة منها لتثبت امتلاكها حاسة استبصار طالما حاولت أن تؤكدها لجاراتها وستنسى في انسياقها

لحماس الإثبات أن تدعي الحزن. كما أن نشوة النميمة الواضحة على ملامحها لم تكن لتترك مكاناً للإدعاء.

لا شك أن عدداً من الجيران الذين سمعوا صراخ *رضوة* تنبهوا أن صراخها يحمل معه رائحة الموت الخبيثة. بل أن بعضهم سيقسم أنه شمّ هذه الرائحة حتى أفسدت عليه ما كان يفعله في تلك اللحظة.

فبخلاف كل الروائح تمتاز رائحة الموت الثقيلة بوجود أقرب للمادي. بل إن بعض الناس يمكنه أن يتذوقها كما يتذوق طعم الصدأ في الإناء القديم.

لكن كل من تنبه إلى رائحة الموت هذه تململ في مكانه استعدادا للنهوض بعد قليل للقيام بواجبه الثقيل المفروض عليه ألا وهو منع *السربّة* من قتل زوجته ضربا كما ظنوا.

لم يفكر أحدهم في البداية أن *رضوة* تصرخ لموت حدث.

إلا **خضر** الجزار، فهو أول من تنبه أن صراخ *رضوة* لم يكن صراخ امرأة تتعرض للضرب.

فعلى الرغم من أن أغلب من سمعوا الصراخ كانوا من الرجال الذين يضربون زوجاتهم أحيانا أو من الزوجات اللائي يتعرضن للضرب من أزواجهن إلا أن خضر الجزار امتاز على كل جيرانه – إن لم يكن على كل سكان القرية – بخبرته الثرة والعريضة في هذا المجال وهي الخبرة التي مكنته من تمييز الفرق سريعا بين صراخ *رضوة جبريل* وصراخ امرأة يضربها زوجها.

خضر الجزار بجسده الأبيض الممتلئ الضخم وكفه المتعملقة حتى لتبدو كأنها تشويها عجيبا لا يناسب بنيته رغم ضخامته كان فخورا أنه يضرب زوجاته الثلاثة كل ليلة.

فيما بعد سيظن خضر وهو يؤنب نفسه أن ضربه زوجته *حليمة* في الليلة السابقة هو ما منعه من سماع صرخات العجوز.

لكن أحداً لم يكن واثقاً أن العجوز صرخت تلك الليلة.

خضر كان جالسا ذلك الصباح جلسته المحببة محتبياً على الأرض يداعب طفلته وينتشي بضحكاتها المبتورة؛ ورائحة القهوة التي تعدها *حليمة* زوجته تملأ روحه.

لخضر ثلاث زوجات يسكنهن في بيت واحد كي لا يفوّت على نفسه ضربهن سوياً كل ليلة.

زوجته *حليمة* وهي تعد القهوة تمنت لو كان لها حظ ابنة زوجها منه.

و هو يحاول نفض النوم عن طفلته ذات العام وبضعة أشهر بدغدغتها وتقليبها رأسا على عقب كإناء فارغٍ تنبه خضر أن صراخ *رضوة* لا يشبه ما اعتاد عليه من امرأة تُضرب.

كان صراخا غريبا.

هب واقفاً فملأ هيكله العملاق باحة العريش الذي يجلس تحته وانتفضت زوجته فزعة وقد ظنت أن صراخ *رضوة* قد أشعل فيه تعطشه لضربها مرة أخرى.

خشيت *حليمة* لوهلة أن يكون زوجها قد استثاره صراخ الجارة، فهي لم تكن تقوى على تحمل صفعة أخرى من تلك الكف الضخمة التي تشعرها حين تهوي على صدغها أنها ارتطمت *ببابور* المشروع الضخم الذي يحتاج تحريكه من مكانه لخمسة عشر رجلا وكثير من الجهد.

لكن عينا خضر كانتا معلقتين بالمنزل المجاور، الذي يبدو في الربوة القريبة عاليا بسورة الأبيض حديث الطلاء، في مكانه العالي الغريب الذي كان يثير تندر *الكونج* كلها.

لم يكن خضر ينظر إلى زوجته التي أفلتت من يدها آنية القهوة حين أجفلت بل كان ينظر إلى مصدر الصراخ وقلبه يدق في عنف. وقال في توتر **لا حول الله ! هناك من مات في بيت** *السر بلّة*".

نور الدايم فكر في ذات الشيء حين سمع صوت باب بيت خضر الحديدي يفتح في عنف وأتاه صوت جاره الجزار وهو يردد فزعاً **لا حول ولا قوة إلا بالله**

فجأة وكأن ضوءاً مبهرا سُلّط على عينيه فأوجعه فكّر نور *الدايم* أن ما يسمعه إنما هو صراخ موت. آلمته الفكرة حتى عجز عن الحركة ثواني.

و كأنها الإلهام سرت الفكرة في كل البيوت القريبة ولم يعد أحد ممن سمع الصراخ يفكر إلا في شيء واحد فجأة.

هناك من مات في بيت *السر بلّة*.

[٢]

تتراص القرى على ضفة بحر النيل وفي جزائره متفانية في التماثل، حريصة على أن لا تمتاز إحداهن على الأخريات.

لكل جزيرة في بحر النيل ساب وكونج.

أسماء تسربت إليها من ثقافات النوبة ولغاتهم. فشمالها ساب وجنوبها كونج.

و زحفت الأسماء فراراً من بطش فيضان النيل عن الجزر مع سكانها في أزمنة بعيدة فوسمت قرى الضفة الناشئة.

الكونج كغيرها من جاراتها من القرى، تلك التي نزحت إلى الضفاف أو التي بقيت في أسر النيل قيد جزائرها، لا تختلف عنهن في شيء. ولا ترضى لنفسها الاختلاف.

كغيرها من القرى تؤمن أنه من العادي أن يموت الناس.

الموت حدث طبيعي لا يستدعي ضجة. ولو أن أهل القرى كانوا أكثر جراءة لقالوا إن الموت حدث ممل، تكرر حتى فقد ما له من أهمية.

لقرية *الكونج* كان الموت يستدعي الانتباه فقط للإجابة على سؤال واحد.

هل سيعود الميت أم يواصل طريقه مباشرة.
يعرف أهل شمال البلاد أن من الموتى مَن ليسو مهذبين كفاية ليواصلوا طريقهم إلى الجانب الآخر من الحياة.
بعضٌ كان يصبر فقط ثلاثة أيام يقال أنها الأيام التي يسأله فيها الملكان. أسئلة معروفة للجميع لكنها تبدو - بالتأكيد - صعبة حين تسألها الملائكة في قبر ضيق وأنت ملتف بالأكفان.
من يقدر على الإجابة على أي سؤال وهو ملتف بالأكفان ؟
بعد هذه الأيام الثلاثة يصبح الميت حراً في التصرف.
أغلب الموتى يواصلون عبورهم إلى عالم البرزخ في انتظار أن ينفخ *إسرافيل* الملاك صوره.
و هم بعد هذا العبور يعودون أحيانا إلى قبورهم لينظروا ما حدث لأجسادهم. لهذا يحرص أهالي *الكونج* على وضع إناء به بعض ماءٍ جوار رأس القبر ليشرب منه الميت بعد رحلته الشاقة من البرزخ إلى الأرض.
لكن بعض الموتى يفتقرون للتهذيب الكافي فلا يقنعون برؤية أجسادهم فقط. بعضٌ يحاول العودة إلى حياته السابقة.
كان السؤال الذي يستدعي انتباه القرية هو هل سيعود هذا الميت أم سيواصل طريقه ؟
و لأن الإجابة على هذا السؤال تكون عادة غير محددة إلا بعد مرور أسبوع على الوفاة فإن الاحتمالات كلها تكون مفتوحة في الأيام الأولى.

لذلك يحرص أهل الميت على قفل الأبواب جيدا ليلاً ويغيروا مواضع أشياء الميت الخاصة حتى لا يألف المكان إذا ما غافلهم ودخل بأي صورة، ولا يشغلهم عن ذلك الحرص أي حزن.

للموتى غرام مشبوب بأشيائهم الخاصة كأنما يفتقدونها في عالمهم الآخر. لذلك عادة ما تدخل المرأة الميتة أول ما تدخل إلى مطبخها وتأخذ في تقليب الأواني وغسلها. وربما سمعها البعض تتشكي من كثرة الأطباق والحلل المتسخة. تلك التي اتسخت من استعمالها في عزاءها هي بالذات. لكنها لا تعرف.

فالميزة الثانية التي تميز عودة الموتى أنهم ينسون أنهم ماتوا.

نور الدايم يذكر جيداً أن والده عاد في الليلة الرابعة لموته.

نسوا باباً مفتوحاً فدخل والد *نور الدايم* الذي توفي في مستشفى الريفي من تسمم جرح أصابه وهو يدير بابور الماء. فبسبب السن والبرد؛ الذي فاق التوقعات وهزم التجارب؛ اهتزت يد والده وهو يدير ذراع البابور فسقطت على قدمه.

الجرح الذي اختلط بالتراب والشحم والماء لم يبد خطيراً لأي شخص رآه.

لهذا لم يكن *نور الدايم* يربط بينه وبين الحمى التي أصابت والده بعد تسعة أيام واضطرته إلى حمله إلى مستشفى الريفي بسيارة جاره *السربلة*.

و لمّا أخبرهم الطبيب الذي أيقظوه من النوم ووقف أمامهم يلوك أشياء غامضة أن المريض وصل درجة من التسمم لا يقدر أن يعالجه منها لفقر المستشفى لم يصدق *نور الدايم* هذا.

و ظل لأكثر من ساعة بعد وفاة والده يطارد الطبيب – الذي استيقظ تماماً – في فناء المستشفى وهو يقسم أن يقتله لأنه تسبب – بشكل ما يجهله لكنه واثق منه – في موت والده.

والد *نور الدايم* عاد من الموت في الليلة الرابعة ودخل من الباب المفتوح ودلف مباشرة إلى غرفة نومه. الغرفة التي كان بها بعض الضيوف من المعزين، يحاولون النوم وهم يتبادلون الثرثرة المترنحة ويشعل بعضهم سيجارة ما قبل النوم، لم تكن كما تركها المرحوم. فقد حرص *نور الدايم* وإخوته على إفراغها من السرير الحديدي ومنضدة الخشب والشماعة والدولاب النصفي وصحن البصاق الممتلئ بالرمل ومصحف والدهم وسبحته. واستبدلوا ذلك ببروش القش التي مدوها على جنبات الغرفة الأربعة نهاراً ، ثم فرشوا عليها مراتب قطن مهترئة ليلاً لينام عليها الضيوف.

لهذا حين دخل والد *نور الدايم* الغرفة واتجه إلى الركن الغربي منها بحثا عن الشماعة الخشبية، ليعلّق عليها جلباباً لا يلبسه، لم يجدها. فتحوّل ناحية الركن الشمالي يبحث عنها. مما جعله يخطو فوق أحد مدعي النوم على الأرض.

الرجل الذي خطا المرحوم فوقه كان يكتم أنفاسه وحاول التظاهر أنه مجرد جزء ناتئ من المرتبة. وقد نجح في ذلك رغم

عرقه البارد ودقات صدره التي كانت مسموعة ربما حتى آخر القرية.

جال المرحوم في الغرفة برهة ثم قرر أنها ليست غرفته التي يعرفها فعاد أدراجه مغادراً.

الخبر الذي حكاه السبعة الذين شهدوه كان فضيحة *لنور الدايم* رغم اعتياد *الكونج* على عودات كهذه.

فرغم أن واحداً أو اثنين من كل عشرة يموتون يعود إلى الحياة بعد أيام إلا أن أهل المتوفى في *الكونج* دوما ظلوا يعتبرون هذا عيباً يحاولون إنكاره وتكذيبه بكل الصور.

لذلك حاول *نور الدايم* وأخوته أن يشككوا في رواية الضيوف السبعة الذين شهدوا بعودة المرحوم.

التشكيك قام على أسس قوية. إذ أن أحد الشهود لم ير الداخل في ضوء يسمح له بتعرفه. هم فقط رأوا شخصاً يدخل الغرفة المظلمة ويجول فيها ويدوس على أحدهم ثم يغادر.

الشهود اعتمدوا على شكل الجسد في الظلام إذ كان الداخل نحيلاً في ظهره أنحاء واضح ويمشي متكفئاً. وهي صفات يعرفها *نور الدايم* جيداً. هي صفات والده التي ورثها عنه دون إخوته. *فنور الدايم* كوالده طويل نحيل بظهره انحناء ويحمل وجهاً نحيفاً وعنقاً كأنه جمل *بشاري* أصيل.

كما أن المنطق يتعجب من الذي يدخل غرفة المرحوم ليبحث في أركانها ثم يطأ النائمين ويغادر صامتاً . مَن مِن الأحياء يفعل شيئاً كهذا ؟

لكن سؤال التشكيك القائم دوماً هو   هل رآه أحدكم بوضوح أم هو الشك ؟

مثل هذا التشكيك يكفي عادة لقفل موضوع النقاش لكنه لا يكفي لتكذيب الخبر.

فمن الحقائق التي يعرفها أهل *الكونج* أن لا أحد على مر تاريخ عودة الموتى قد رأى العائد في ضوء أو استطاع أن يمسك به.

الوحيد الذي يقال أنه حاول شيئاً كهذا هو ***الطاهر نُقد*** عامل *البوسته* القديم. وقد انتهى به الحال إلى ما يعلمه أهل القرية كلهم ، مع تردد الشك هل كان ما أصابه بسبب العائدين أم بسبب امرأة الجبل ؟

لذلك تظل شهادة أي شاهد بعودة الميت خبراً يقينياً غير قابل للتكذيب. لكن المجاملات تقتضي عدم إظهار التصديق أمام أهله.

هذه القصص كانت هي ما يثير *الكونج* للموت.

فالحدث من حيث هو أصبح روتينيا قميئاً.

أما الموت الذي حدث ذلك الصباح في بيت *السر بلة* فقد كان موتاً مختلفاً لم يحدث في *الكونج* من قبل.

نور الدايم كان أول الواصلين رغم أنه انطلق بعد خضر بلحظات.

لكن الجزار الحصيف فضّل أن يتقدمه *نور الدايم* مراعياً أنه رغم كل سنوات وجوده في القرية وزواجه بامرأتين منهما على زوجته الثالثة التي جلبها معه إلا أنه يظل غريباً إلى حد ما. لم ينس الناس بعد أنه مصري قدمٍ عليهم من أسفل الوادي، وظل وصف *الريافي* يلحق به دوماً.

بهذه الحاسة تأخر خضر بضعة خطوات مكّنت *نور الدايم* من الوصول قبله ودفع باب بيت *السر بلة* بعنف حتى انفتح وقفز داخلاً.

المشهد الذي رآه *نور الدايم* بدا له غير مفهوم في الوهلة الأولى.

لقد أدرك أن العجوز ***شامة*** ماتت.

هذا واضح من صراخ ابنتها *رضوة جبريل* ومن انكفاء زوج ابنتها *السر بلة* على الأرض وهو ينشج ويضرب رأسه بكفيه.

رضوة كانت تقف أمام فراش أمها وتصرخ كأن أحدهم ينتزع كبدها حية.

على السرير الموضوع في الفناء قريباً من الحائط، في مكان لا تصله شمس الصباح إلا بعد أن تقطع مشواراً طويلاً في السماء، كان جسد العجوز ممداً ملتفاً بثوب أبيض لم تكن تلبس غيره منذ سبعة عشر عاماً منذ أتى خبر وفاة زوجها ***جبريل الله جابو***.

لكن الذي كان غير مفهوم *لنور الدايم* هو ذلك الدم الذي يلوث جسد العجوز، كما أن العجوز بدت له أقصر مما اعتاد أن يراها.

اقترب *نور الدايم*، وقاربه خضر، ينظران إلى جسد العجوز الذابل.

سمع *نور الدايم* خلفه ضجة الداخلين يسألون عن ما هناك.

حين انتهيا فوق سرير العجوز عرف *نور الدايم* لماذا ظن أنها أقصر قامة مما يعرفها. كانِ الجسد الممدد ينقص رأساً.

و هو يشهق ويتراجع قافزاً إلى الخلف لمح *نور الدايم* كرةً مغضنةً يكسوها شعر لوّنته الحناء ملقاة على الجانب الآخر من السرير في حيز ضيق يفصله عن الحائط. ابتلع *نور الدايم* لسانه من الفزع على حين استطاع خضر الجزار أن يصرخ:

يا رب يا ساتر أحدهم ذبح *شامة* !!!

[٣]

يخبط *نور الدايم* بكفه مرتين على سطح علبة *سعوطه* قبل أن يدير غطاءها ويغرس أصابعه الخشنة في التفل الأسود ليقبض منه قليلاً على أطراف أنامله ثم يحشوه في شفته السفلى.

يحكم غطاء العلبة مرة أخرى ثم يخفيها في جيبه ويبصق على الأرض ويقول

أسوأ مشهد يمكن أن يراه أحد في حياته هو مشهد جسد بلا رأس.

هذا مشهد قاسي جدا ومرعب حتى لمن لا يخاف. أنا لا أعرف الخوف. و*الكونج* كلها تعلم أني أشجع شخص بها.

حين يموت شخص ليلاً - وكثيراً ما يفعلون - فأنا أول من يتطوع للذهاب إلى الجبّانة لحفر القبر. أتطوع حتى قبل أن يحضروا البطاريات لتضئ الطريق. يقولون أنهم يحضرون البطاريات ليروا بها موطئ أقدامهم. يكذبون. كلنا نتحرك في القرية دون بطاريات. وحده ***د. إبراهيم*** المجنون يحمل بطارية أينما ذهب. *د.إبراهيم* ليس طبيباً لكنه يحمل درجة علمية من جامعة الأزهر. والقرية تعامله على أنه مجنون لطيف. الشباب يسخرون منه في *دكان **مالك زيادة*** ويسمونه *عربة المحلية*. حين

يظهر عند رأس الشارع يسرع الجالسون أمام الدكان للتفرق والاختباء بعيداً عن نظره. هو تقريباً لا يرى لكنه يثير المشكلات أينما ذهب ويعتبر نفسه أهم شخص في القرية، بل في كل الريفي.

الحقيقة أنه بعد أن خرج على المعاش وعاد إلى *الكونج* ليستقر بِها أضفى على رتابة الحياة لطافة ملحوظة. وأصبحت نوادره تحكى في كل مجلس، مع كراهية الجميع له.

د. *إبراهيم* وحده من يحمل بطارية صباحاً ومساءً لأنه أعمى إلا قليلاً. أما نحن فكلنا يرى في الليل كما يرى في النهار. ونستطيع تمييز الأشخاص من مسافة بعيدة في ليلة مظلمة ليس فيها نجوم. ونعرف الطريق بوقع خطواتنا على الرمل والحجر. فلماذا لا يحملون بطاريات إلا حين يريدون دخول الجبّانة ؟ إنهم جبناء لكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك. بطارية للرؤية ؟ الصلاة على النبي !! أنا الوحيد الذي لا يخاف. وهم يعرفون ذلك جيداً.

لا اعتقد أن هناك ما يخيف في الجبّانة.

بعضٌ يخاف من الطريق إلى الجبّانة لأنه يمر بالجبل.

و في الجبل جنية شهيرة يسمونها امرأة الجبل. إنهم يخافون هذه الجنية. لكني لا أخافها. *الطاهر* نقد يزعم انه فقد بصره بسببها. لكن *الطاهر* كذّاب. من يصدق *الطاهر* نقد على أي حال؟ من يصدق *الطاهر* نقد ينسى حادثة تسجيل التموين الشهيرة. هذه الحادثة اشتهرت حتى عمت كل الريفي. *الطاهر* فقد بصره لسبب آخر. كلنا يعرف هذا السبب لكنه يحاول أن يوهمنا بشيء مختلف.

ولا أحد غير *الطاهر نقد* يزعم أنه رأى امرأة الجبل عن قــرب. أصدق *الطاهر نقد* ؟ الصلاة على النبي!!

لو سألتني فسأقول لك أنه لا توجد جنية في الجبل.

هذه أسطورة يصدقها البلهاء والجبناء. وأنــا رجــل ذكـــي وشجاع. امرأة الجبل قصة أشاعها الشباب قبل سنوات في *الكونج* ليتستروا على *ست ابتسام* المدرّسة ونزواتها.

ست *ابتسام* كانت معلمة من خارج القرية تسكن فـــي ميــز المعلمات على طرف الجبل. ولم يكن ســلوكها محمــوداً. كانــت تخرج للقاء عشاقها ليلاً عند غرفة إتحاد المرأة المهجورة في قمة الجبل.

الذي يرى ست *ابتسام* ليلا بثوبها الأبــيض وهـــي تــسري صامتة يظنها جنية. وست *ابتسام* فعلاً جنية. إنها شبقة لا ترتــوي من الرجال ويمكنها أن تعاشر تسعة رجال في ليلة واحدة. وهـــي لا تخاف وتقبل الذهاب إلى أي مكان لتلتقي بعشاقها. *زربونة* جداً.

ست *ابتسام* فارقت *الكونج* منذ سنوات. لكن حكاية الجنية التي خلقها الشباب الفاجر والخوف الأحمق بقيت بعــدها. جنيـــة فـــي الجبل؟ الصلاة على النبي!!

أنا لا أخاف الذهاب إلى الجبّانة ولا أخاف الحفر لــيلاً ولا أخاف ركوب البحر في أيام الفيضان في قارب صيد صـــغير. لكني رغم كل هذا شعرت بالخوف حين رأيت جسد *شـــامة* بـــلا رأس.

لم أفكر من قبل كم يبدو الإنسان قصيراً بلا رأس.

لقد أزعجتني هذه الفكرة جداً وشغلتني لأيام. حتى أني أخذت أراقب خضر الريافي ذلك الجزار اللصِ خلسة وأنا أتخيل جسده العملاق بلا رأس. سيبدو قصيراً هزيلاً إن فقد هيكله الضخم هذا الرأس الكبير والعنق الغليظ المغروس على كتفيه كناطور الساقية.

جسد *شامة* الجاف كحبة تمر *جاو* سيئة السقي كان منطوياً داخل ثوبها الأبيض والدم ينز من عنقها النحيل.

لا يوجد من يحب هذه العجوز البغيضة في كل *الكونج* لكن أحداً لن يسره رؤيتها في وضع كهذا. للموت خاصية عجيبة أنه يحوّل كل المساوئ إلى حسنات.

لو مات د. *إبراهيم* فستجد من يرثيه بطيبة قلبه وحسن معشره رغم أن ظله على الأرض هو كارثة في حد ذاته.

أما لو مات الريافي المجرم خضر فإن كل أوقية لحم سرقها ستُنسى ويحدّثك الناس عن شهامته ومروءته.

بقدر ما يبغضك الناس في حياتك سيظهرون حبك بعد موتك.

هكذا يمكنك أن تفهم كم حزنت حين رأيت *شامة* بلا رأس. ناهيك عن أن الموت العنيف مدعاة للرثاء.

أي أفكار دارت في رأس العجوز قبل أن تفقده ؟

هل بقيت في رأسها الملقى أسفل السرير أي خبث وحماقات؟

شعرت بقشعريرة لم أشعر بها في حياتي. اهتز جسدي كله وشعرت بصدري بارداً كأن أحدهم ألقى عليّ دلواً من الماء المثلّج في عز برد طوبة.

أنا لا أخجل، لذلك أقول أني أردت أن أهرب من خوفي بفعل شيء ما. لم أجد أمامي سوى *رضوة* الصارخة.

رضوة التي تشبه ملامحها أمها في كل شيء إلا في أنها تحتفظ برأسها فوق جسدها الآن كانت مازالت تصرخ بلا كلل.

زوجها الخائب كان يبكي على الأرض ويرجف كأنه بابور تحطمت مسامير ربطه

رفعت كفي وهويت بها على صدغ المرأة. صفعتها مرة واثنتين وثلاثة حتى انقطع صوتها. صرخت فيها **أسكتي يا حيوانة**

أمسكني بعضٌ وهم يلومونني ويطالبونني بأن أهدأ وأصلي على النبي.

جذبوها بعيداً عني وعن الجثة.

أنا الجار الأقرب *للسر بلة* وزوجتي قريبة زوجته *رضوة*. جدة *رضوة* لأمها ابنة خال والد جد *الزين* زوجتي. الجيرة والقرابة تعطياني حقوقاً وتفرضان عليّ واجبات أهم من الجزع والشعور بالخوف. يمكنني فيما بعد أن أشعر بالخوف كما أشاء. أما الآن فإن هناك موت حدث. وهناك جريمة أيضاً. لا أحد يموت بأن يفقد رأسه دون أن يكون هناك جريمة.

حدث كهذا يستدعي ترتيبات كثيرة وأنا المرشح الأولى لتوليها.

إكرام الجثمان باخفاءه في حجرة بعيدة عن أعين المتطفلين، إبلاغ الشرطة، إرسال بعضٍ للجبّانة لحفر القبر، تجهيز البيت للعزاء، وبعث الخبر إلى القرى المجاورة.

من سيقوم بكل هذا إن لم يكن أنا ؟

لذلك كنت أحتاج صفع *رضوة* حتى أرتب أفكاري قبل البدء بأي شيء، ولإظهار أني من يتولى المسئولية.

لا أريد أن يتقدم فجأة أبناء *الله جابو* ليفرضوا أنفسهم على مصابنا بحجة أن *رضوة* ابنتهم والمرحومة زوجة أخيهم. أبناء *الله جابو* يتحكمون في عزاءنا ؟ الصلاة على النبي!!

بمجرد أن صفعت تلك الزربونة *رضوة* كنت قد تخلصت من توتري وأعلنت للجميع من هو الرئيس هنا.

لذلك ما أن أبعدوا *رضوة* حتى تقدم نحوي *مالك زيادة* وهو يسأل عن أول شيء ينبغي فعله.

أمرته أن يحمل الجثمان بحذر ويضعه في إحدى الغرف ثم يضم إليه الرأس المقطوع.

فكرت أننا سنحتاج إلى مشورة أستاذ ***مدني*** شيخ الجامع في كيفية غسل جثمان بلا رأس ورأس بلا جثمان.

إن تكفين العجوز على جزئين سيكون حدثاً فريداً في *الكونج*.

لم أكن أعرف هل سنحتاج إلى تشييعها على جزء واحد أم سنحتاج إلى سريرين لحملها على جزئين. وهل يمكن دفنها في قبر واحد أم نحتاج إلى قبرين.

المرة الوحيدة التي دُفن فيها شخص على جزئين في *الكونج* كانت حين مات ***بدرالدين نقد*** شقيق *الطاهر* ودفناه بعد دفن ساقه التي فقدها لمرضه *بالسكري*.

حين قُطعت ساق *بدرالدين* قمنا بتكفينها والصلاة عليها ودفنها في الجبانة كأنها شخص كامل. وقد أخذ *بدرالدين* يبكي ساقه زمناً طويلاً. أن يخرج الناس بجزء منك ليدفنوه هو شعور غريب. وطول العام الذي فصل بين دفن الساق ودفن *بدرالدين* ظل المسكين يحكي عن شعوره لحظة رأى قبر ساقه لأول مرة.

بعد موته حملنا *بدرالدين* إلى قبر ملاصق لقبر ساقه ودفناه هناك عندها.

لم أكن أعرف هل سنفعل ذات الشيء مع رأس *شامة* أم ندفنها في قبر واحد.

أستاذ مدني لا يعرف الإجابة قطعاً لكنه يستطيع العثور عليها في إحدى كتب والده القديمة.

فوالد مدني كان إمام الجامع وشيخه. بل هو بشكل ما كان صاحبه، امتهن الإمامة وتكسّب من المسجد رغم قذارة لسانه وبخله المشهور لكنه كان فقيهاً رغم كل شيء. وقد ورث عنه مدني مهنة الإمامة، فقط كي لا يسمح بخروجها عن الأسرة. لكن عشيق ست *ابتسام* القديم كان آخر من يصلح لأن يكون شيخاً للجامع. فقط في *الكونج* يمكن أن يتسامح الناس مع ماضي كهذا ويسمحون لزناوي متمرس كمدني أن يؤمهم في صلاتهم.

بعد أن يقوم *مالك* ومعه بعضّ بإخفاء الجثمان يمكن أن أسأل أستاذ مدني خفية عن حكم الشرع في هذا الأمر وسيسره أن يجد الاهتمام مني لأول مرة. فأنا رجل مؤمن لم أكن ألجأ في شئون ديني إلى أستاذ مدني. أستفتي مدني الزناوي في ديني ؟ الصلاة على النبي!!

لكنها الضرورة الآن. وقد قيل اتبع عالم وأمرق سالم" مدني ليس عالماً ولا يحزنون لكنه يصلح لأن يحمل عني إثم التصرف الخاطئ إن كان هناك خطأ.

أما في تلك اللحظة فقد كان المهم أخفاء الجثمان وإبلاغ الشرطة.

بعدها يمكن أن أرى ما أفعله في هذه المصيبة.

[٤]

حين نزل ***عوض الكريم*** رقيب الشرطة من سيارة البوكس أسفل التلة التي يقوم أعلاها منزل *السر بلة* كان يحس الخيلاء والأهمية المبالغ فيها.

عدّل وضع *البوريه* العسكري على رأسه الذي جزّه الصلع ونفخ في استعلاء من يدرك كنه أمور عميقة لا يعرفها البسطاء الذين لم يرزقوا حنكته وحصافته.

عوض *الكريم* في أول الأربعينيات من عمره ، قوي البنيان ، تتدلى أمامه كرشٌ أحسن تربيتها ورهلتها حياة شرطي الريف، يكشر عن سِنةّ فضية تلمع جوار أسنانه النخرة.

وهو يتسلق التلة صعوداً، وخلفه جمهرة من التلاميذ الذين خرجوا من منازلهم قاصدين المدرسة ثم عرّجوا جميعاً دون اتفاق إلى بيت *السر* مدركين أن اليوم أهم من أن يضيع بين جدران الفصول في انتظار معلمين لن يأتوا لأنهم في موقع الحدث الأهم في تاريخ *الكونج*، كان عوض *الكريم* يفكر في السبب الأحمق الذي أغرى *السر* لبناء بيته في هذا المكان الغريب.

منزل *السر بلة* القائم على قمة تلة وحيدة في طرف القرية الشرقي محاداً الخلاء الواسع كان أعجوبة تستحق التندر في الأوقات العادية. لكنه في لحظة كهذه كان مثار سخط كثيرين اضطروا إلى التسلق إليه مراراً في غمرة التفاصيل الكثيرة التي تستدعي الهبوط إلى القرية والصعود مرة أخرى إلى منزل الحادث.

شباب القرية الذي اعتاد الجلوس أمام دكان *مالك* مع قدوم عصر كل يوم ويمتد مجلسهم حتى قبل منتصف الليل بقليل يتبادلون الأخبار والقصص والمزاح والسجائر كانوا يسخرون من بيت *السر* قائلين إنه يشبه سيارة لا يشتعل محركها إلا بالدفع، لذلك تبيت أعلى التل ليسهل تشغيلها على صاحبها وهي تتدحرج.

كان بدر *الدين نقد* – قبل أن يفقد ساقه وروحه المرحة – أول من نبههم إلى هذا الشبه.

وهو يحتبي أسفل العمود الخارجي لدكان *مالك* ويمص سيجارة بلغت العُقب نافثاً دخانها من أنفه سأل *السر بلة* وكلماته تختلط بصوت *النعام آدم* الخارج من جهاز تسجيل قديم مربوط بحبل من القماش يمسك بطارياته أن تفارق جوفه "***بيتك أبا يدوّر*** ؟

السر كان يمسك في يده كيس *عيش* اشتراه من *طابونة* **عبد الباقي** وهي الوحيدة في *الكونج* والتي تتعطل لأسباب عديدة أكثر مما تعمل ويمد يده الأخرى يتناول بها صندوق سجائر وكيلو حلاوة طحنية ويردد مع *النعام آدم* "*ربنا مالك الممالك يحرق*

الكومر الشالك". لوهلة لم يفهم ما قالــه *بدر الــدين* فالتفــت إليــه مستفهماً لتقابله ضحكات الجلوس.

لأسباب كثيرة كان *السر* يخشى لسان *بدر الــدين* ويتحاشــاه. واستماعه لما يقوله *بدرالدين* تسبب من قبل في أذيته بشده وقضى جراء ذلك أربعة أيام في مستشفى الريفي ومازال ساعداه يحملان أثار تلك الحماقة.

لذلك اكتفى بابتسامة مقتضبة وحيا الجلوس وهو يبتعد نحــو تلته القصية.

عوض الكريم رقيب الشرطة كان يعرف تلك الحكايات وأكثر منها بحكم انتماءه *للكونج*.

فهي بلدته التي تركها يوماً إثر غضبة اعترتــه مــن والــده وانضم إلى معسكر تجنيد في عاصمة الإقليم البعيــدة محــاولاً أن يشق طريقه وحده.

رحيل *عوض الكريم* الذي بدا إخفاقاً عجيباً وعقوقاً اســتدعى سخط والده ودعاءه عليه بشدة حتى فزعــت أمــه إلــى شــيوخ *الوراريق* تطلبهم حفظ ابنها من دعاء والده تحول بعــد ســنوات قلائل إلى مجد وانتصار يحسده عليه غيره من أبناء *الكونج*.

فعودات *عوض الكريم* إلى القرية في نهاية كل أســبوع – إلا تلك الأيام التي تحتاج بقاءه في المدينة لتــأمين زيــارة مــسئول عاصمي مهم أو وقوع سرقة كبرى في إحدى القــرى – كانــت تحدث ضجة وأهمية بدخوله القرية بزيه الرسمي وحقيبته المغبرة

وحذاء العسكر الضخم الذي يترك أثراً مميزاً على الأرض. ذلك الأثر الذي شبهه بدر *الدين* مرة بدرب *التراكتور* لضخامته وخطوط نعله المتعرجة التي يحفرها على التراب.

كما كان عوض *الكريم* يبدع في الحديث، المقتضب والمستفيض ، عن أهميته في سلك الشرطة وجسامة المسئوليات التي تقع على عاتقه؛ ويكثر الإشارة إلى عمله المهم وهو يلعب *الدومينو* أو *الكوتشينة* في نادي القرية.

يجلس عوض *الكريم* في جلباب رمادي يشبه ما يره أهل *الكونج* في التلفزيون على أجساد الفلاحين المصريين في المسلسلات التي يدمنوها ويمسك قطع *الدومينو* في كفه اليسرى على حين يعبث بيمناه في شاربه الكث. يفكر للحظات ثم يهوي بيمينه كصقر منقض فيخطف قطعة من حضن كفه يخبطها على سطح الطاولة بقوة تبعثر القطع المتراصة. ثم يضحك في دماثة ويقول "**لعب بوليس**". أو يلقي كرتا خطرا في *الكوتشينة* غير وجل ويبرر جراءته بذات العبارة المميزة له.

أما حين يخالطه النعاس ويقرر النهوض إلى منزله فإنه يبرر ذلك بأنه بوليس صاحب ضبط وربط لا تتيح له مسئولياته السهر كالمزارعين".

لذلك كان يعد إرساله لتلقي البلاغ والتحقيق في الجريمة التي وقعت في قريته، حتى حضور ضابط الشرطة من المدينة، تأكيداً لا منزع شك فيه على قيمته واستحقاقات زعامته التي يبسطها حوله في تعامله مع أبناء قريته؛ أولئك الذين كان يشاركهم

الجلوس أمام الدكان منذ سنوات قلائل بلا خطط واضحة للمستقبل.

زعامته هذه كانت تبدو في غرس خطواته في التلة وهو يتسلق إلى مكان الحادث. وقد سرّه أن الأطفال كانوا يسيرون خلفه كأنهم حاشية تزفه إلى علياءه. ذلك رغم حنقه على مشقة الصعود التي كان يرى أنها لا طائل منها إلا محاولة *السر بلة* للتحايل على خيباتِه. وهو الأمر الذي يعلم الجميع أنه قد فشل فيه.

فرغم أن أحداً لم يصرح بالسبب إلا أن *الكونج* كلها – تقريباً – كانت تحدس سبب غرس *السر* لمنزله في هذا المكان المكشوف من كل جانب.

دخل *عوض الكريم* المنزل المكتظ الذي لا مكان فيه لظل على الأرض وشق بصدره طريقه إلى *السر بلة* ورفع يديه بالفاتحة.

نطقها بغلظة عسكرية كأنه يؤدي واجباً ميرياً لا عزاء ابن القرية لأخيه. فقد كان حريصاً أن يُعلم الجميع أنه ما جاء إلا بصفته الرسمية فلا يحاولوا التعامل معه إلا باعتباره الرقيب أول شرطة *عوض الكريم الأحمر*. أي محاولة للتودد مرفوضة وستؤدي بصاحبها إلى وخيم العاقبة.

لذلك ساءه – إلى حد ما – أنِ *السر* كان منهاراً فلم يقدر على النهوض لتلقي فاتحة العزاء قائماً. لكنه قرر التجاوز عن هذه الصغائر في سبيل إثبات سلطته الكلية.

و قد وجد الفرصة لذلك حين اقترب منه *نور الدايم* ليهمس له في تواطؤ أصحاب الدرجة الواحدة أنهم تفقدوا البيت فلم يجدوا أثراً لسرقة وأن المجرم ما فعل غير ذبح العجوز ثم فر لا يلوي، ثم أسر إليه في فخر أنهم أخفوا الجثة في إحدى الغرف.

نفخ عوض *الكريم* صدره واتسع منخاره حتى كان يمكن رؤية جوفه عبره وهو يقول بصوت عالي **حمار مين الذي فعل ذلك ؟**

انكمش *نور الدايم* وهو يهمس بصوت أكثر خفوتاً من صوته الأول أنه هو الحمار.

تقدم عوض *الكريم* نحوه خطوة عصبية حتى ظن الناس أنه سيضربه.

مالك زيادة سيقول حين يحكي هذا المشهد في السوق بعد فترة أن *نور الدايم* ارتجف حين خطا عوض *الكريم* نحوه.

"**تغيير مكان الجثة قبل حضور البوليس عبث بالأدلة** قال عوض *الكريم* في غضب وهو يفرد صدره أكثر عند لفظة "البوليس".. ثم أكد في حسم **جريمة جنائية**

يحكي *مالك زيادة* قائلاً

" **تلعثم *نور الدايم* وهو يقول له بصوت راجف انه يحفظ مكان كل بقعة دم ويستطيع أن يعيد كل شيء إلى مكانه كما كان".**

سيضحك *مالك* حتى يشرق وهو يؤكد لمستمعيه :

"كان نور الدايم مستعداً أن يقتل العجوز مرة أخرى أمام عيني عوض الكريم كي يُسكت غضبه".

ثم يستغفر حبه من هذه السخرية.

نفض عوض *الكريم* يده في ازدراء وتقدم نحو السرير الذي ظل مكانه ووقف ينظر إليه.

دار حوله في حنكه وهو ينظر إلى الأرض. فكّر *نور الدايم* أنه ربما يبحث عن الرأس. أوشك أن يخبره أنهم وضعوا الرأس داخل دولاب الغرفة التي أخفوا فيها الجثمان لكنه خشي ردة الفعل العنيفة من العسكري الفظ فآثر الاختباء في صمت مرتبك.

في المساحة التي تفصل السرير عن الحائط حيث كان الرأس ملقى انحنى عوض *الكريم* ينظر بعناية ثم برك على الأرض مخاطراً أن يتسخ بنطاله بالتراب ليحصل على نظرة أقرب.

رفع رأسه وسأل عمن دخل من أهل *الكونج* إلى هذا الحيّز الضيق.

تقدم نحوه *مالك زيادة* وآخر من الذين ساعدوه في حمل الجثمان. نظر عوض *الكريم* إلى أقدامهم ثم أعاد النظر إلى الأرض وسأل عمن كان معهم أيضاً.

تذكر *نور الدايم* أن خضر عبر ذلك المكان لينظر إلى الرأس عن قرب.

الجزار الريافي إضافة إلى أنه لص يسرق اللحم ويذبح المريض من البهائم لم يخف من الرأس ولا اشمأز منه بل تقدم

نحوه وانحنى عليه كأنه يتأكد إن كان ميتاً أم مازال به بعض حياة.

يعرف أهل *الكونج* أن خضر الريافي كان أقلهم اكتراثاً بالموت.

ويذكرون جيداً يوم ثلاثاء كان يبيع فيه اللحم في جزارته حين أخذوا يتحدثون عن فقد الأحبة وموت الأقارب وهم يتباحثون الذهاب إلى قرية مجاورة لعزاء رجل توفيت أخته. اشترك معهم فجأة خضر مؤكداً أن فقد الأحبة شيء عسير. ثم أشفع تأكيده بصوته الحلقي الغليظ قائلاً بلهجته المختلطة **أول أمس أرسلوا لي من البلد أن أمي ماتت. الله يرحمها كانت طيبة**". ثم هوى على قطعة لحم أمامه *بالفرّار* ليقطعها.

تلفت *نور الدايم* حوله منتظراً أن يتقدم خضر ليجيب سؤال عوض *الكريم*. لكن خضر كان ذهب يبحث عن بهيمة يذبحها لتقديمها في العزاء. *نور الدايم* كان واثقاً أن الريافي سيُحاسب على سعر البهيمة بأضعاف ما اشتراها به لذلك سيحتاج أن يشتريها من أحد الأعراب بعيداً جداً عن *الكونج* حتى لا يصل الخبر بسرعة.

غياب خضر أضطر *نور الدايم* أن يتبرع هو بالإجابة. رمقه عوض *الكريم* طويلا كأنه يكذّبه، ثم هز رأسه متقبلاً الإجابة قبل أن يعيد سؤاله مرة أخرى عمن مر هنا غير هؤلاء.

تبادل الوقوف النظر ولم يجب أحد.

كرر عوض *الكريم* سؤاله مرة وأخرى ثم وقف متمهلاً وسأل **"أين بكري العربي القصّاص؟"**

في ذات اللحظة التي ومضت الفكرة في أذهان الجميع لم يسمح لهم عوض *الكريم* بالاستمتاع بذكائهم فقال في تشف "**القاتل ترك أثر أقدامه واضحة على الأرض. هذا شيء لا تلاحظونه**".

ثم أكد في فخر

"**شغل بوليس**".

[٥]

عادة حين يأتي ذكر بكري العربي يقول أهل *الكونج* **من يطمع في استخراج الكلام من بكري العربي كمن يعشم في حلب العصفور** . لكن صموت الأعرابي الماكر لا يعني أنه لا يحب الثرثرة عن قصص قيافته ومكره. فحين يتعلق الأمر بالقيافة وقص الأثر أو المكر والحيل يبدأ *بكري* في الكلام ولا يصمت أبداً ويخرج من حكاية ليدخل في أخرى.

حين يكون الكلام عن هذه الأمور فإن *بكري* هو أكثر الصامتين ثرثرة على وجه الأرض.

يقال أنه – في مناسبة معينة – استمر يحكي قصصه لمدة ثلاثة عشر يوماً ،لم يصمت فيها قط إلا حين يضطر للابتعاد عن الناس ليقضي حاجة ثم يقفل وهو يواصل حكايته بصوت عالي قبل أن يصل مجلسه. وكانت الواقعة الأسطورية في المرة الوحيدة التي صعد فيها إلى عاصمة البلاد. يظن البعض أن خوفه من ركوب *اللوري* هو ما جعله يهرب من توتره بالحكايات. فبدأ الحكي في أطراف الريفي ولم يصمت إلا حين توقف *اللوري* في قلب السوق الشعبي. وقد شاء حظ رفاقه العاثر أن يصادفهم السيل

في الطريق فتوقفوا لأكثر من أسبوع جعله بكري بثرثرته أشبه بالعَقد.

حكاية بكري عن مقتل *شامة* كانت إحدى حكاياته المفضلة التي لا يمل ترديدها. من الخبثاء من يزعم أنه مرّ جوار بيت بكري ذات مرة فسمعه يحكي الحكاية بمتعة وتجليّ ، فأراد أن يعرف المسكين الذي يحكي له الأعرابي ، فنهض على حمارته ونظر من الشباك ليجد بكري يحكي القصة لنفسه.

يقول بكري العربي حين يبدأ الكلام عن موت *شامة*

الأعرابي الحصيف يستطيع أن يتكهن الحوادث قبل أن تقع.

من الناس من يظن أن قص الأثر والقيافة فقط في تتبعِ آثار الأقدام على الرمال ومعرفة شبه البشر. نحن نتقن هذا طبعاً. بل نتقن تتبعِ الأثر حتى في الصخر. الأعرابي الماهر يعرف كيف يتتبع أثراً في صخر أصم. عشب مدهوس أو حصاة مقلوبة تكفي لتخبر الأعرابي عن الطريق الذي مرت به الطريدة. ويستطيع الأعرابي أن يميز أثر الرجل عن المرأة، من دون مؤاخذة. مهما بلغت قدم المرأة – من دون مؤاخذة – من الضخامة فإنها لا تترك أثراً بعمق قدم الرجل.

و وحدهم الأعراب من يلاحظون إن كان أثر القدم اليمنى أعمق من أثر القدم اليسرى مما يعني أن الطريدة مصابة في عينها اليسرى. كلما زاد الفرق بين الأثرين كلما زاد مصاب العين. ربما وجع أو ضعف بصر وقد يصل لأن يكون عوراً.

و نحن من نقدر – دون غيرنا – أن نقرأ الشبه في الوجوه والأجساد. أهل الحضر حمقى يبحثون عن الشبه في ملامح الوجه. فيقولون هذا أنف فلان أو شفتي علان ويقيسون الشبه على هذا. الأعراب يعرفون أن هذا الشبه خدّاع. يمكن أن يشترك ملايين الناس في ذات الأنف بلا رابط بينهم. في مرة رأيت في تلفزيون النادي رجلا مهما من الخواجات. كانت له نفس أنف *جبريل الله جابو* رحمه الله. الأنوف لا تُخبر بالقرابة.

نحن وحدنا نعرف أن شبه القرابة يظهر من منتصف قصبة الأنف أعلى الوجنتين صعوداً إلى فروة الرأس. لكننا نترك أهل الحضر الحمقى يهرفون بكلامهم. إن كلام أهل الحضر في القيافة والأثر ككلام النساء – من دون مؤاخذة – لا قيمة له.

نترك لهم أوهامهم لنحتفظ نحن بعلمنا ، لكنّا لا نرفض أن نعينهم. أنا لم أرفض قط أن أعين أهل *الكونج* في أي مرة احتاجوني فيها. رغم أنهم يحتقرون الأعراب وينبذونهم. لكن نحن – الأعراب – لا نعبأ بهم. النبي كان عربياً فماذا يهمنا بعد ذلك ؟

يكفي أننا نعرف قيمتنا وأهميتنا، ويكفي أننا نقدر أن نأخذ كل ما نريد منهم بمسكنتنا وطيبتنا.

أهل الحضر خفاف العقول يمكن خداعهم بسهولة.

نحن لسنا خبثاء لكنّا دهاة. الداهية ليس كالخبيث.

في مرة خدعت بدهائي *الطاهر نقد* وعوض *الكريم* العسكري ونصف سوق *الكونج*.

الطاهر كان بصيراً ولم يعم بعد. كان يطلبني ديناً ولم يفتح الله عليّ برزق أرده به. لقيني في السوق وأخذ يغلظ لي القول. فقط لأني عربي كان يظن أن من حقه أن يصرخ عليّ وأن يعنفني ويتهمني باللصوصية. أنا لم أكن أطمع في ماله لكن كيف أرده ما لم يرزقني الله ؟

الله لم يرزقني. ماذا أفعل ؟ أهل الحضر أحياناً يقاربون الكفر حين يعارضون قدر الله ويعترضون عليه.

يعيبون علينا أننا لا نصلي مثلهم. هذا ليس ذمّا فالرسول قد وضع الصلاة عن الأعراب. هذا أمر يعرفه كل مسلم؛ لكن دين أهل الحضر غريب. يحسدون الأعراب على هذه الميزة فيعدونها عيباً وقلة دين. ثم يعترضون على قدر الله ورزقه. الصلاة لأهل الحضر لكنها ليست لنا. ومن صلى فله أجر النافلة.

إن لم يكن الأمر كذلك فما فضل العرب على غيرهم ؟ العرب خير من أهل الحضر، والرجال خير من النساء من دون مؤاخذه، والمسلم خير من الخواجة. هكذا رتب الله الدنيا.

حاولت أن أعتذر *للطاهر* لكنه لم يقبل عذري. قال لي- استغفر الله - **اخلق لي نقودي الآن**".

اجتمع حولنا أهل السوق، وتقدم عوض *الكريم* العسكري – كان في إجازة لكنه لم يخلع غروره مع زيه الرسمي – وأمرني أن أرد نقود *الطاهر* وإلا اقتادني إلى قسم الشرطة.

الطاهر نقد كان يحمل في يده عصاه التي لم يكن يفارقها. تلك التي شجعته على مهاجمة امرأة الجبل بعد ذلك فخذلته كما

ينبغي لها. الجن جنود الله فكيف يهاجمها. كان يزبد في وجهي وهو يحرك عصاه ملوحاً فأصاب جنبي بها. حقيقة لم يصبني لكنه مسني بها وكزاً لا يُذكر. لكنني صرخت وهويت برأسي على الأرض. أخذت أفحط وأنا أتلوى وأصيح أنه قتلني. الحضر الحمقى يظنون أن ضربة الجنب تقتل.

ارتبك عوض *الكريم* العسكري وهو يرى أن واجبه أن يقف في صفي أنا الأعرابي ضد قريبه *الطاهر نقد*. أمرني أن أنهض لكنني رفست قدمه كالموجوع. تدخل الناس وهم يلومون *الطاهر* وهو يقسم أنه لم يضربني. لكن متى كان أهل الحضر يحسنون استعمال أعينهم ؟ لقد رأوا العصا تلمسني ثم هويت صارخاً فلابد أنها ضربتي بعنف لكنهم لم يلحظوه لسبب أو آخر.

ظللت أتلوى حتى عفى *الطاهر* دينه،صرخ بالطلاق والحرّام أنه لا يريد مني مالاً وأنه يعفو حقه طلباً لسلامتي وأن أقوم معافى، فتحاملت على نفسي قائماً وطلبت أن يحملوني للمستشفى. فزع *الطاهر* وأخذ يحلف بالطلاق أن الأمر لا يحتاج ذلك. الكشف الطبي يتطلب محضراً في البوليس وهي ورطة كبيرة له. في النهاية اضطر *الطاهر* – بعد أن اقترح عليه بعضهم ذلك – أن يرشوني بما يساوي قيمة الدين الذي يطلبني. قبلت رشوته على مضض وأخبرته بين أسناني وأنا أتصنع التصبر على الوجع أني لم أدفع ثمن الإفطار والقهوة بعد. قَبِل أن يدفعها إن عفوت عنه أمام الناس وأعلنت براءته من دمي إن قتلني شيء في ليلتي.

بعد تمنع قبلت أن أكرمه بهذا وقد طلبني الحضور وعزوني في الطلب.

و قال له عوض *الكريم* العسكري **لقد نجوت من مشكلة كبيرة. الاعتداء على الناس بالعصا جريمة في القانون**

أمثال هؤلاء الناس من يظنون أن الأعراب يقرءون الأثر على الأرض ويحسنون القيافة فقط. ماذا يعرفون عن أي شيء ؟

نحن نستطيع قراءة الجو والسماء. نعرف خبر السحب ونغم الطير.

لذلك حين رأيت النجوم لامعة تلك الليلة عرفت أن صبيحتها موت أحد. كانت نجمة الضيفان تلمع برتابة نعرف سرها وحدنا. مثل هذا اللمعان يعني أن أحد أهل القرية سيكون ضيف الله.

و حين حل الفجر كان الضباب يلف الأشياء معلناً موت أحدهم.

ضوء الصبح كان كلون اللبن العكر.

حلبت ناقتي وجلست انكت الرمل أمام بيتي منتظراً أن أسمع الصائح يُخبر بالموت.

الصائح دعوة لحضور العزاء. والأعرابي لا يزور من غير دعوة.

سمعت أصوات البكاء تأتي من بعيد وصراخ مفزوع يتردد مع مرور الهواء من القرية. لكن الصائح الذي يمر منادياً بخبر

الموت ويعلن مكان الدفن والعزاء تأخر. ارتفعت الشمس في السماء وخفّت الأصوات.

موتٌ بلا صائح ؟ لا يمكن فهم أهل الحضر أبداً. لهذا أنا سعيد ببيتي البعيد عن القرية حتى لا أصاب بجنونهم. رضيت أن أسكن جوار القرية لا في قلبها رغم أن ذلك كان في مقدوري.

امرأتي – من دون مؤاخذة – سألتني هل من خبر عن الميت؟ المناسبات في *الكونج* مفيدة لها إذ تذهب لتخدم فيها وتنال أجراً لا بأس به. أخبرتها أنه لا جديد لكن من الأفضل أن تظل على أهبة الاستعداد.

لمحت – من مسافة بعيدة – الريافي خضر الجزار على حماره العالي يتجه جنوباً. قدّرت أنه خرج في طلب بهيمة. أهل الحضر يأكلون اللحم مطبوخاً بكثير من الماء. نحن عادة لا نحب الأكل بهذه الطريقة. الطبيخ يسبب لنا *الطميمة* ويؤلم بطوننا. لكن جواري *للكونج* أفسدني وعوّدني أكل المطبوخ.

بعد زمن رأيت حمارتين تتجهان نحو بيتي.

يبدو أنهم بعثوا في طلبي. هل كل هذا الصراخ بسبب سرقة؟

أهل *الكونج* عادة لا يحتاجون خدماتي إلا لأكوي مريضاً أو أقص أثراً لسرقة. لا سبب يدعوني للظن أنهم يطلبوني لأكوي الميت. وكل هذا الصراخ والبكاء لا يمكن أن يكون بسبب مرض.

فهل يمكن أن يكون بسبب سرقة ؟

أنا لم أخطئ قراءة النجم. لكني لم أتخيل قط أن يكون هناك من قُتِل في *الكونج*.

أهل *الكونج* حمقى لكنهم ليسوا قتلة. القتل يحتاج قلباً حاراً لم يفسده أكل الطبيخ.

أنا كنت أقدر على القتل قبل أن أعتاد الطبيخ.

حين أخبروني ما حدث تعجبت جداً. تعجبت حتى أني نسيت أن أقوم معهم وظللت مكاني أفكر فيما قالوه لي. نبهوني أن عوض *الكريم* العسكري ينتظرني. ركبت حمارتي وتبعتهم وأنا أفكر في عجائب هذه الدنيا.

لو تكهّن أحدٌ أن قتلاً سيقع في بيت *السر بلة* فإن المرشح لأن يكون القتيل هو *رضوة* زوجته لا أمها العجوز. كل الناس يعرفون خبر المرأة – من دون مؤاخذة – وعجز زوجها عن تأديبها. إنه يضربها كثيراً لكن بلا جدوى.

حريم الأعراب لا يفعلن مثل نسوان الحضر. ولو حدث أن فعلت إحدى حريمنا – من دون مؤاخذة – ما تفعله نسوان الحضر فإننا نضربها خفيفاً ثم نفتك بالرجل. والرجل عادة ما يكون من الحضر. فرجال الأعراب لا يخونون. أما الحضر فإن الله ابتلاهم بكل المصائب. ما نفعله بالرجل يجعل غيره يجبن عن تكرار الفعلة.

منذ سنوات ضرب أولادنا في إحدى القرى المجاورة ابن مدير المدرسة الثانوية لأنهم رأوه يتبع إحدى عويننا الصغيرات. قيل بعد ذلك أن أولادنا تعجلوا الظن، لكن الحادثة جعلت لبيوتنا

حرمة في كل الريفي. هذا هو قلب الأعراب الذين لا يأكلون الطبيخ. هل يستكثرون علينا بعد ذلك أن يعفينا الرسول من الصلاة ؟ إن من له عزة نفوسنا لا يمكن أن يطالبه الله بالركوع.

لكن أهل الحضر ليسوا مثلنا. وإذا ثاروا فإنهم يثورون على المرأة فقط دون الرجل.

المرأة مظنة العيب فإن صدر منها فلا كثير لوم عليها.

المرأة كالنعل والحمارة من دون مؤاخذة. أي عاقل يلوم نعله أو حمارته ؟

أهل الحضر يفعلون؛ ويدّعون أنهم عقلاء. لذلك كنت أظن السر سيفعل مثلهم ويقتل رضوة يوماً. أما أن يقتل أحدهم أمها فهذا عجيب.

لن يكف الحضر عن ارتكاب الحماقات ما بقيت الدنيا.

[٦]

في رتابة حياة شمال البلاد يتحول كل حدث غير معتاد إلى مهرجان.

و في الأحداث غير المعتادة تسقط الأعراف والتقاليد ويمكن تجاوز التراتيبية الاجتماعية ويجوز التعدي السافر على كل قيمة يحتفي بها في غير الوقت الاستثنائي.

حين تحرك بكريِ العربي من تحت حائط بيت *السرباتة* الغربي منحنياً على الأرض، يقرأ الأثر بخبرة أعرابية يتوارثها الأعراب دون أن يطلعوا على أسرارها غيرهم ، خاصة أهل الحضر، كانت زفة كرنفالية يختلط فيها الرجال والنساء صغاراً وكباراً تحفه وتجري خلفه وعن يمينه وشماله تاركة بين يديه فسيحاً يتقصى فيه درب القاتل.

يوم قائظ كعهد *الكونج*. تتطرف في حرها وتفرط في بردها. الرمال بدأت تحمى ويشتعل لونها الذهبي بتسلق الشمس قبة السماء. البيوت التي يختلط فيها الطين بالطوب متناثرة كأنما سقطت من سحابة فأخذت منها لونها الأبيض. البيبان كلها مفتوحة والضجيج يعم الشوارع الرملية ذات البراح.

احتشد الرجال والنساء يتبعون الأعرابي وهم يتبادلون الهواجس والاستنتاجات والذكريات.

أحياناً يحاول أحدهم أن يبدي نبوغاً فيسبق الأعرابي لينظر الأثر قبله لكن عوض *الكريم* العسكري كان يجذب المتفلت من جلبابه في قسوة ليعيده إلى القطيع.

الأطفال يجرّون خلفهم أكياس القماش التي يفترضون أنها حقائب مدرسية فتخط دروباً على الرمال. بعضهم حافي وكلهم أغبش مشعر أشعث متكلس المرفقين والركبتين كأنهما ركبتي بعير. أغلب الأطفال لم يروا *بكري* الأعرابي يتبع أثراً من قبل لذلك كانوا يحبسون أنفاسهم في رهبة وترقب ذكي، يحشدون الذكرى في رفوف ذكرياتهم المكتظة بآلاف المشاهد التي اختزنوها من الحياة القصيرة والتلفزيون المتربع في ردهة النادي.

خلال السنوات السبعة أو الثمانية الأخيرة - والتي تشكل كل أو أغلب حياة الأطفال المتبعين الحشد - لم تقع جريمة سرقة في *الكونج* تحتاج خبرات *بكري* العربي لذلك كان المشهد جديداً على الأطفال.

المرة الواحدة التي احتاجت فيها *الكونج* لخبرات قص الأثر عند *بكري* في تلك السنوات كانت منذ عامين حين احترقت جنينة ***زيادة حسن*** والد ***مالك***. مشهد الحريق كان أكثر جاذبية للأطفال من تتبع الأعرابي الذي بدأ في قراءة الأثر والنار مازالت مشتعلة.

يذكر الأطفال جيداً مشهد النار وهي تأكل جذوع النخل في هدوء وثقة قبل أن تصل إلى القلب في الأعلى فتشتعل باللهب في جريد النخل الجاف. هسيس النار الناعم وطقطقتها مع صوت سقوط الجذوع وقد تآكلت فاستحالت فحماً كان أكثر إثارة من أي صوت سمعه الأطفال في حيواتهم القصيرة.

للكبار كان ما يحدث مأساة عظيمة خاصةً *لزيادة* وأبناءه. فالمصلحة العامة كانت تحتم عليهم أن يقطعوا بأيديهم هم لا بأيدي غيرهم نخلهم الذي لم تصله النار بعد ، تحرزاً من أن يتجاوز الحريق أرضهم إلى نخل الجيران.

في مثل هذه الحالات يفضل أهل *الكونج* أن يقوم صاحب الأرض بقطع نخله بنفسه تفادياً لحرج الضغينة واتهام الشماتة بدلالة الحماس المبالغ فيه في العمل.

زيادة حمل فأسه وأخذ يهوي على سوق النخل وعيناه يتغشّاهما الدمع فيُعجِزه عن الرؤية، بينما ينهمك أهل القرية في محاولة فاشلة لمقاومة الحريق.

ما يعرفه أي مزارع أن حريق النخيل يصعب أن ينطفئ. الوسيلة الأنجح لمقاومته هي أن يتم فصل النخيل المشتعل عن بقية النخيل فيتم حصر الخسائر في أقل نطاق ممكن. تأكل النار في ثقة ما وصلت إليه من نخل ثم تخبو حين تأتي على وجبتها.

أما محاولات قذفها بالماء فهي مجرد حلاوة روح يمارسها الناس من باب السعي خير من قعاد العجز. أو هي *السعال* الذي هو خير من الصمت كما يقول أهل البلد.

فلضخامة الثمن الذي يترتب على الحريق يحرص أهل القرى على توخي الحذر في التعامل مع النار قرب النخل فلا تكاد حوادث الحريق تحدث إلا كل بضع سنوات بعيدة. لهذا كان حدث حريق جنينة *زيادة حسن* مشهداً لا يمكن تفويته عند الأطفال المحظوظين الذين لا يعلمون متى تسعدهم حماقة الكبار برؤية مشهد كهذا. فانصرفوا إليه وتركوا *بكري* العربي يقرأ الأثر في معية قلة من أشداء القرية الذين حدسوا أن النار اشتعلت بفعل متعمد لا بحادث أخرق.

وقد أثبت تتبع *بكري* أن مشعل النار كان أحد عرب لقيط التمر الذين يفدون كل موسم للعمل في جنائن القرية. لكن التتبع لم يمكنهم من القبض على الجاني الذي أشعل النار انتقاماً *من زيادة حسن* الذي اكتاله حقه بما لم يرضه ثم سبه واستقوى عليه، بحسب ما شكى الأعرابي وهو يطلب الإنصاف أمام الدكان؛ أو لحقد وطمع وحب للأذى كحب الجرذ - الذي يقرض سبيط التمر فيسقطه على الأرض ثم يأكل منه تمرة واحدة ويدع البقية- للأذى كما أكد *زيادة حسن* وهو يبكي وسط الرماد الذي تبقى من جنينته المورقة. فبعد عناء تقصي الأثر بين طين الجداول وحشائش الأرض قادهم الدرب إلى طريق العربات خارج القرية حيث قال *بكري* أن الفاعل ركب سيارة مرت منذ ساعات على ما تخبره الآثار.

بكري العربي انحدر من أعلى التلة متبعاً الأثر ومن خلفه كل القرية تقريباً إلا قلة من نسوة عجائز قعدن إلى *رضوة جبريل* يبكين معها أمها ويسألن في استكانة متصالحة مع الحياة عن من له مصلحة في قتل العجوز الطيبة وآحاد من الناس غابوا لسبب أو آخر. ثم عبر بين البيوت القريبة إلى باحة الجامع. حين اقترب الحشد من ساحة الجامع الرملية صاح أستاذ مدني **عدو الله عبر بالمسجد** قالها في عداء ظاهر كأن أحداً اعتدى على أملاكه. لكن الناس سيظنون أنه ما قال هذا إلا ليذكرهم أنه تحول من ذلك العربيد الذي يعرفونه إلى شيخ تقي، وهو الأمر الذي كان كثيرون لا يصدقونه. وكان ظنهم السيئ تدعمه سيرة أستاذ مدني في مدرسة *الكونج* الابتدائية التي يدرّس فيها مادة الجغرافية ليعلم أطفال *الكونج*،الذين لم يروا في حياتهم سوى النخيل والمانجو والبرتقال،مناخات زراعة الأرز في الصين وسبل ري العنب في الشام. سيرة الأستاذ مع عدد من المعلماتٍ لم تكن محمودة وإن لم يكن الإستيثاق من هذه السيرة هيناً.

مر الحشد،بهدوء متواطئ قدر الإمكان بعد أن عبر باحة الجامع،بالساحة السوية أمام بيت *د.إبراهيم*. وتذكر *نور الدايم* حين عبر تحت شجرة *دقن الباشا* - التي زرعها *د.إبراهيم* وسط الساحة ليمنع الناس عن البناء هناك- مجلس جماعة تسجيل التموين منذ سنوات هنا وما صحب ذلك من فضيحة *للطاهر نقد*، فابتسم رغماً عنه.

امتد الأثر – الذي لا يميزونه بدقة لكن *بكري* يتبعه بثقة – إلى رقعة الحجرِ خلف منزل *د.إبراهيم* الذي لم يظهر حتى الآن. ربما كان متعالياً عن الظهور بمظهر الفضول قبل أن تتضح الأشياء كبقية أهل القرية، أو ربما لأنه لم يجد حذاءه بعد. فقد كانت زوجته تخفي حذاءه أحياناً لتمنعه عن الخروج بغير علمها خشية من تصرفاته التي تجلب عليه – وعليها بالتبعية – التندر والسخرية.

حين بلغ الحشد رقعة الحجر أحس *عوض الكريم* العسكري بالتوتر.

ظن أن الأعرابي ربما يضيّع الأثر الذي يمشي خلفه بثقة من يتبع طريقاً أسفلتياً واضح المعالم في قلب مدينة عصرية. لكن تفاخر *بكري* العربي أنه يستطيع تتبع "*أثر طائر أحول فوق الماء*" لم يكن اختلاقاً. نعم لا يدري أحد بدقة لماذا يختار *بكري* للتفاخر طائراً أحولاً ، ولا لماذا يتبع أحد أثر طائر فوق الماء أحولاً كان أو حاد البصر، لكن تجاربهم مع *بكري* كانت تدفعهم لتصديق ذلك حتى إن لم يقع أو يستوعبوا إمكانية وقوعه.

مكانة *بكري* في القرية التي تصل درجة التقديس في عمله وهذا التسليم بعلمه كانتا لذة حياته. ومن أجلهما نكص عن فكرة هجر *الكونج*.

أين يمكن أن يقود عصبة من الحضر المغرورين الممتلئين بهواء الغباء في استكانة وتوقير كما يفعل في هذه اللحظة ؟

إن ما تقدمه له *الكونج* من مكانة لن يجده في أي مكان آخر سواء ديار أهله العرب في الخلاء أو المدينة التي حاول أن يقيم فيها.

حلم الهجرة كان هو سبب رحلته الوحيدة التي لم يعقبها إلى المدينة على ظهر لوري *جبريل الله جابو*. تلك الرحلة التي استمرت ثلاثة عشر يوماً في طريق الذهاب – صلى فيها رفاقه بحكاياته وثرثرته – وعشرة أيام في المدينة وستة أيام في طريق العودة.

حين ظهر *بكري* أمام دكان *مالك* في الليلة الثانية لعودته كان الجميع ينتظرونه ليحكي لهم سبب عودته. فقد كان برر لهم الهجرة بحاجته للمال وأخبار الفرص التي يجنيها أبناء عمومة له من العمل كبائعين سرّيحة في السوق الشعبي. قال إن المال هناك مبذول على الطريق لكن لا يراه ولا يجنيه إلا الأعراب الأذكياء.

حمل حاجيات حياته في صرة كبيرة وأودع زوجته الجرباء كفأر حقل هزيل عند أهله في مكان ما بصحراء العتمور، واستودع أهل *الكونج* غباءهم وأعلنهم الفراق. لذلك كانت عودته واعدة بنادرة من نوادره ، وإلا فهي باب للسخرية منه والتفكه عليه لن يُغلق قبل زمن.

و لم يخيّب *بكري* أمال *الكونج* حين استخرج من تلافيف دهاءه سبب عودته. لم يرد أن يصرّح أنه افتقد ذلك الاهتمام الذي يجده حين يُحمل إليه مريض أو يتبع أثراً. كيف يقول للحضر أن انتقامه من استعلائهم بالتذاذه خضوعهم لعلمه أمر أحب إليه من

جني المال المبذول على طرقات السوق الشعبي ينتظر الأعـــراب الأذكياء ليجنوه.

جلس على الأرض وتجاهل سؤال الجلوس عن سبب عودتـــه ليزيد من انتباههم. عابثوه وشغبوا عليه يـــستفزونه. لاذ بـــسمت صمته المشهور وجمد كتمثال لا يهتز. يقول بعـــضٌ إن بكـــري العربي حين يخلد إلى سكونه يكف حتى عن التنفس. لمّا ضـــمن انتباههم وفيضان فضولهم قال لهم

"**المدينة مكان منزوع البركة**" نخس أسنانه بظفـــر بنـــصره "**هناك حتى الخراء لا بركة فيه. تجلس إلى حفرة بئر ولا تـــسمع إلا صوت البطبطة.. بَط .. بَط .. بَط لا تدري ما خرج منـــك. أما هنا فحتى الخراء مبروك. تجلس أسفل شجرة مانجو، تمسك فرعها وتحزق فيئز الذنّانِ فوقك زن ن ن ن .. وتقوم لترى مـــا خرج منك، ما شاء الله، لُبَط لُبَط**"

كلمة *بكري* تلقفتها القرية منفجرة بضحك هستيري لتـــصبح وصفاً دائماً *للكونج* أنها "*البلد أم خرا مبروك*"

نجح الأعرابي الماكر أن يشغل الناس بكلمته هذه عن تتبـــع أسباب عودته الحقيقية بفضولهم المعروف.

ما كان يسمح أن يعرفوا عنه تلك اللذة التي يتنشقها بإدمان ، حتى ولو كانت تحدث على أزمنة متباعدة.

لذة أن يملك وجدانهم كما فعل يوم كان يتبع أثر قاتل *شامة*.

لو قال لهم أن يكفوا عن التنفس لأنه يـــشوش عليـــه لمـــاتوا مختنقين. أي سلطة وأي تسليم.

أي تقدير وأي ثناء.

حين مر مجتازاً رقعة الحجر - و*الكونج* خلفه - وأشار إلى بقية الأثر الذي ظهر على الرمال هلل الرجال في استحسان وكاد النسوة يزغردن لولا أن *نور الدايم* حدجهن بنظرة زاجرة كي لا ينسين سبب ما هم فيه. أما الأطفال فقد هتفوا في انبهار "*دين أمك* .. وظل بعضهم - لزمن طويل بعد ذلك - يصر على إجابة مفتش وزارة التربية والتعليم ،الذي يزور مدرسة القرية لماماً، حين يسأل عن أمنية ما يريد أن يكون في المستقبل؛ بأنه يريد أن يكون *قصّاص أثر*".

بعد رقعة الحجر انحرف الأثر يميناً ليمر عبر رقعة أشجار *المسكيت* التي زُرعت في زمن قديم لمقاومة التصحر فنجحت في الحد من الزحف الصحراوي ونمو أشجار النخيل على سويةٍ.

حين بلغ الأثر هذا المكان بدأ *نور الدايم* يعرق في توتر. بلع ريقه فلعبت تفاحة عنقه على مجراه الطويل هبوطاً وصعوداً.

خلف أشجار المسكيت أربعة بيوت فقط. لكن واحد منها هو الذي ارتبط ذكر صاحبه ببيت *السر بلة*.

الفكرة طافت بأذهان الجميع - تقريباً - وبدأ التوتر يظهر على الحشد. تبادل عوض *الكريم* -في لحظة سهو - نظرة حائرة مع عبد *الباقي* صاحب الطابونة كأنه يسأله المشورة. رد عبد *الباقي* بنظرة أكثر حيرة.

النساء بدأن في التراخي عن المسير. نهاية هذا الأثر قد تكون أعجب إجابة لسؤال "من قتل العجوز؟" ، إجابة تفتح باب سؤال "لماذا قُتلت العجوز ؟" ، وتفتح معه أبواباً أخرى دخلها الجميع في *الكونج* من قبل – بحكم أنها قريتهم ومشاكلهم – لكن هذه المرة سيدخلها كل الريفي والبوليس وقضاء المدينة.

في نهاية هذا الدرب ستلوك الألسن سمعة *الكونج*.

ربما تمنى *نور الدايم* أن يتوقف *بكري* العربي المُنْكَب على الأرض ككلب صيد أريب. ربما فكّر *عوض الكريم* أن يوقفه ويتهمه بالخبل والتهريج وأنه قادهم إلى درب خاطئ ويهدده بالحبس بتهمة تضليل العدالة.

يُقال أن *مالك زيادة* وقف وسط أشجار *المسكيت* وقال في خوف "*توقفوا*" لكنّ أحداً ليس واثقاً أنه سمعه يقول هذا.

ربما حدث كل هذا وربما لم يحدث .. لكن ما حدث يقيناً هو أن *بكري* اجتاز أشجار *المسكيت* واتجه مباشرة إلى بيت طيني له شبابيك زرقاء وباب من *الزنك* ، أمامه عربة كارو متكئة على الأرض بلا حمار يجرها.

البيت الذي خشي الجميع أن يقودهم الأعرابي إليه.

حين دفع *بكري* باب *الزنك* – وهو بعد منحني على الأرض لا يميز أبيتاً دخل أم مسجداً – توقف *عوض الكريم* العسكري ووضع يديه على رأسه الأصلع الضخم وقال في ذهول **يا الله! ماذا فعل ذلك الأحمق**

و من وسط الحشد انفلت أحد الأطفال يجري عائداً نحو قلب القرية وهو يصرخ حاملاً الخبر لمن تخلف

" ***علي صالح قتل الشامة .. علي صالح قتل الشامة***

[٧]

حين يتبع نسوة القرى المجاورة خيط النميمة إلى *الكونج* ويحاولن التقاط تفاصيل الحكاية من بدايتها فإنهن لا يجدن في نهاية الأمر سوى حد *الزين* زوج *نور الدايم* يلجأن إليها.

قد يشترك مع حد *الزين* كثير من أهل *الكونج* في معرفة دقائق القصة وثنيات ما حدث فيها. لكن هي وحدها تجرؤ على قصها لمن يقصدنها من خارج القرية. *الكونج* كلها ستحكي القصة لمن يطلبها لكن بعد إسقاط تفاصيل معينة لن يذكرها أحد إلا حد *الزين*.

ربما كانت جراءة استلفتها من حكايات زوجها *نور الدايم* عن شجاعته ، أو ربما كانت نزقاً وتهوراً في تقدير العواقب ، أو ربما كانت إخلاصاً لموهبة النميمة التي مُنحتها.

هذه الثالثة تبدو الراجحة لأن حد *الزين* في غير هذه الحادثة تشتهر أيضاً أنها لا تمسك كلاماً مهما كلفها إفشاءه من عناء. يحكون عنها أنها في صباها سمعت والدها – في جلسة سُكر – يغتاب شيخ الجامع والد أستاذ مدني ويعيب بذاءة لسانه التي لا تلائم مكانه. لم يتحرج الرجل في اغتياب الشيخ أمام صبيته ظناً منه أنها ستتر عليه.

و حد *الزين* تعتذر عن نفسها أنها حاولت أن تكون ذاك الستر الذي ظنه والدها حتى أوت إلى فراشها وأخذت تطلب النوم فاستعصى عليها بالغيبة التي سمعت. ظلت تتقلب حتى ذهبت المقاومة بعقلها أو كادت ، فنهضت وقفزت فوق حائط بيتهم وقصدت شيخ الجامع في جوف الليل. أيقظت الشيخ وأفشته ما سمعت أباها يقول عنه.

سمعها الشيخ وهو من الدهشة في غاية ؛ من تصرفها لا مما نقلت إليه. بعد أن أكملت نميمتها وتنهدت في ارتياح هز الشيخ رأسه مذهولاً وقال لها **سبحان من ثقبك من أسفل فتمسكين بولك ولا تمسكين لسانك**

و كانت هي من نمّ عليه أنه قال لها هذا وفضحت خبره.

لهذا الولاء المطلق للنميمة كن النسوة يتحاشونها أولاً. فهن يعلمن أنها ستخبرهن الخبر كاملاً لكنها أيضاً ستنم عليهن وتخبر بأسماء كل من تسللت إليها لتسألها عن الخبر.

لكن إغراء المعرفة كان يأتي بالنسوة مخاطرات بأن يُعرف ما أقدمن عليه فتلومهن القرى جميعاً.

قبلن أن يسمعن عن حد *الزين* وتنم عليهن.

إن معرفة الحكاية من حد *الزين* غنيمة يهون أمامها اللوم الذي سيلحق بهن. وقد يُكرم الحظ الواحدة فتنسى حد *الزين* أن تذكر اسمها في نمها. رغم أن ذلك كان أملاً مستبعداً لكنه كاف لأن يبعث طمأنينة زائفة في الزائرات.

تضع حد *الزين* صينية القهوة أمام الزائرات وتجلس إلى مقعدها المفضل جوار عامود الغرفة. فوقها مرآة دائرية صغيرة في حجم الكف لها إطار *بلاستيك* أحمر اللون. وتحت المرآة غرست إبر الخياطة – حتى لا تضيع – ومنها تتدلى خيوطها الملونة.

تلعّب لسانها داخل فمها وتنظر في عيون الزائرات تستمد طاقتها من اللهفة المشعة منها. تدعوهن لشرب القهوة قبل أن تبرد. القهوة حين تُصَب تكون حارة جداً أكثر حرارة من أي مشروب ثم تبرد بسرعة.. أسرع من أي مشروب. قهوة حد *الزين* لها مذاق قندول ذرة محروق. لكن الزائرات يشربن متظاهرات بالمتعة.

يعبث الفخر بحد *الزين* فتندفع تقول

أستغفر الله من سيرة الناس. لكن الحق يقال إن *رضوة* فضحتنا وأحنت رؤوسنا.

هي قريبتي. الجميع يعرف ذلك. لكن الحق أحق أن يُقال والنصيحة لا تعرف ابن الأم. جدي الكبير ***أحمد علي العطا*** كان مشهوراً *بأحمد السمّاك*. كان رحمه الله أشهر بائع سمك في كل الريفي. أي بيت لم يكن يشتري من *أحمد السمّاك* هو بيت محدث نعمة. عليه رحمة الله كان من أعلام الريفي لنقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة. بسم الله الرحمن الرحيم العالمين هممم ..مالك يوم.. هممم الضالين.. آمين .. صدق الله العظيم. جدي

أحمد السمّاك أنجب أمي *الرايقة* رحمها الله. أمي *الرايقة* كانت أصغر بناته من أصغر نسائه. جدي *أحمد السمّاك* تزوج أكثر من أربعة عشر امرأة. لهذا ضاعت ثروته التي جناها من بيع السمك. تزوج أكثر من أربعة عشر امرأة وأنجب سبعة وستين ابناً وابنة. وكان على ذلك زناوياً رحمة الله لا يصبر عن الحرام. ليس لقلة دين لكن كان فحلاً ذا قوة. كان سبب موته أنه وقف – رحمه الله – يتبول تحت حائط الزريبة ثم أخذ يستنجي بالحائط اللين. أثاره احتكاك ذكره بالطين فأولجه بثقب في حائط الزريبة. رحمه الله كان في ذلك أجله فقد لدغته عقرب كانت تسكن الثقب.

و تفرقت أمواله على نسائه وأبنائه فلم ينل أحد منهم شيئاً يُذكر.

أحد أكبر أبناء جدي *السمّاك* كان خالي ***عوض***. أسماه *عوض* لأنه مُنِحَه بعد وفاة اثنين من أولاده. أنا لم أر خالي *عوض*. لقد مات قبل أن يتزوج جدي *أحمد السمّاك* جدتي حد *الزين*. فأنا اسمي حد *الزين* على اسم جدتي. وهي غريبة لم تكن من *الكونج*.

المرحومة *شامة* ابنة ***العافية*** بنت خالي *عوض أحمد السمّاك*. أنا في العمر أصغر من المرحومة *شامة*. بيني وبينها بطنان. فأنا في عمر أصغر شقيقاتها. لكني للمرحومة خالتها ابنة عمة أمها. فأنا في الحسبة جدة *رضوة*. أقول هذا لتعرفوا أني أولى الناس بأن أقول عنها خيراً. لكن الحق أحق أن يُقال. أنا لا أحب أن أخوض في أعراض الناس فأنا عندي ابنتين وأسأل الله أن يسترهن.

ياسمين ابنتي الكبرى التي ساعدتني في عمل هذه القهوة. تدرس في الثانوية. حفظها الله أصبحت *عروسة* لذلك أخاف عليها من كثرة الذهاب إلى الدكان. شباب هذا الزمن بلا أخلاق. أخاف عليها من الذهاب إلى الدكان رغم أني أحس أن الدكان قد يجلب لها عريساً. لكنها كسولة وتنام النهار بطوله – حتى في المدرسة – كأنها تسهر الليل. المرأة الكسول لا يحبها زوجها لهذا أحذرها من الكسل. ابنتي الصغرى *عزة* في الابتدائية.شاطرة. ستصبح طبيبة يوماً وتأخذني معها إلى العاصمة. إن من يغتاب الناس يعاقبه الله في بناته وأنا أخاف على بناتي. لكن الحق أحق أن يُقال.

رضوة كانت امرأة فالتة لا تخجل.

أهل *الكونج* يضربون المثل بست *ابتسام* مدرّسة الابتدائية التي كانت تلاقي الرجال في الجبل ليلاً، وفي *مزيرة* المدرسة بين الحصص، وخلف أي عود له ظل تجده. لكن ماذا يقولون عن امرأة متزوجة تغلق على زوجها غرفة لتلاقي عشيقها في الغرفة الأخرى ؟ يا لقوة العين. بل إنها – مرة – نزلت عن سيارة زوجها – وكنا في طريقنا إلى الشيوخ *الوراريق* – لتركب مع عشيقها على الكارو. هكذا أمام الجميع.

علاقة *رضوة* بعلي *صالح* بدأت أيام زواجها.

كان *علي صالح* هو *العربجي* الذي نقل أثاث غرفة نوم *رضوة* إلى بيت زوجيتها؛ قبل العرس بيومين. كان يحمل قطع

الغرفة ليحمّلها عربته حين خرجت *رضوة* تحذره أن يكسر منها شيئاً. نظرة، وأصابها مس الفجور. جرّت *علي صالح* من يده وأدخلته البيت بحجة إصلاح شباك غرفة نومها. من يُصلح شباك غرفة النوم لماذا يُغلق الباب ؟ وهل يستغرق ذلك ساعة ؟ وهل يتعثر من يُصلح الشبابيك وهو خارج ويعرق في عز الشتاء ؟

المرحومة – الله يرحمها – تصدت لكل من لام *رضوة* وأصرت أن الناس ظنّانين يحبون الإفك. وصمت الشهود خوفاً من لسان الحرباء استغفر الله لسان المرحومة كانت حبيبتي وسرها معي وسري معها فأنا خالتها بنت عمة أمها. لم تكن تستحق هذه النهاية. الجميع كان يحبها رغم أنها حين تزوجها *جبريل الله جابو* لم تكن بنتاً لكن الله غفور رحيم. ولأن الناس يحبونها صمتوا عن ما حدث بين *رضوة* و*علي صالح* إكراماً لها وحرصاً على أن لا يفسدوا على *السربلة* فرحته. وقالوا مرة ولا تتكرر.

لكن *رضوة* لم تقل معهم.

فتكررت وتكررت.

لم تكن تصبر عن *علي صالح*. تقفز الحائط ليلاً لتذهب إليه خلف النادي. يفجران في الخلاء. أعوذ بالله كيف تتجرد الحرة في العراء ؟ وتركب كل أسبوع إلى *الوراريق* بحجة وما لها غرض إلا أن يحملها *علي صالح* فإذا حاذيا *المسكيت* عرّج بها على بيته.

ثم تعود منه حاملة ورقة مطوية – أي ورقة – وتزعم أنه الحجاب الذي كتبه لها *الوراريق* وأنهم أوعدوها الأسبوع القادم.

فإن لم تصبر عن حجاب *الوراريق* إلى تمام الأسبوع – وغالباً لا تصبر – خرجت تبحث عن *علي صالح* في شوارع *الكونج* ليصلح لها شباكاً، أو يرفع جوال تمر، أو يحضر لها عيشاً من طابونة عمه عبد *الباقي*، أو يحمل كرسياً مكسوراً إلى الورشة.

فاجرة لا تغلب. أعتقد أنها مريضة بالدودة. وليس على المريض حرج. لكن لماذا هذه الدودة بإسم *علي صالح* ؟

و لمّا أن ضيّق عليها *السربلة* المسكين وحبسها في البيت أصبحت تستقبل *علي صالح* ليلاً عندها.

تغلق على *السر* الأبله بعد أن ينام ، وتُدخل *علي صالح* لينام معها.

كيد النساء لا علاج له. والمرأة التي لا قلب لها عقرب سام.

و الله ليس *لرضوة* قلب. استغفر الله من حقها لكن المرأة التي تنام مع عشيقها في غرفة التمرجي بالمستشفى وزوجها يتلقى العلاج في العنبر هي امرأة بلا قلب. هي حتى لم تراع لماذا زوجها في المستشفى.

هذه امرأة ليس عندها قلب لكن عندها دودة. وقد انتقم الله منها لكن في أمها المسكينة. ما ذنب هذه المرأة الطيبة ليقتلها *علي صالح*؟

هي لم تكن عدوته ولا كان بينهما خصومة.

بل كانت تساعد ابنتها في لقاءه. يشهد الله على ذلك. كانت أحياناً تخرج مع *رضوة* إلى *الوراريق* في معية *علي صالح* فإذا حاذوا بيت *د. إبراهيم* المجنون نزلت تزور زوجته وتركت

رضوة تذهب مع العربجي. بل سمعتها مرة تقول لهما وهي تنزل **لا تتأخرا .. لستما في شهر عسل والبغل الآخر مدمن سوء ظن** أنا سمعتها بأذني فقد كنت عند زوجة الدكتور. كنت أساعدها على خياطة الملاءات القديمة لأن زوجها البخيل لا يشتري لها ملاءات. فتضطر البائسة لرفو القديم وترقيعه لتستر حالها أمام الضيوف. لكنها استأمنتني على هذا السر وأنا لم أقله لكُنّ إلا لأنكن مثل أخواتي. وكتمان السر بين الإخوان جفاء.

و حين ترك *السر بلة* بيته القديم وابتنى البيت الجديد أعلى التلة ليصعب التسلل إليه ويكون مكشوفاً من كل جهة كانت المرحومة من تولى معارضته. مالها هي وأين يبني الرجل بيته ؟ هي ضيفة في بيت زوج ابنتها لها لقمتها وسريرها. لا يضرها أن يكون البيت في رأس التلة أو رأس أستاذ مدني المنافق. لكنها كانت تنبح حرصاً على فجور ابنتها.

فلماذا يقتلها الضلالي ؟

ذبحها وقطع رأسها بعد ذلك.

البعض يقول إن سبب ذلك سر كان بين المرحومة و*علي صالح*، لكن هذا هراء.

كل ما يقوله الآخرون - خصوصاً *حليمة* زوجة خضر الريافي اللص - كذب واختلاق.

لقد أفسدت صفعات خضر الريافي عقل *حليمة* تماماً فصارت تخرّف. إنه يضربها كل يوم. يقول إن جسدها حلو في الضرب. يصفعها بكفه الضخم - هل رأيتن كف خضر من قبل ؟ -

ويركلها في بطنها لهذا لم تحبل منه وتكتفي بتربية أطفاله من زوجتيه الأخريين، ثم يمسك شعرها ويدق بجبينها عمود السرير. إنها جارتي الأقرب والباب بالباب لكن الحق أحق أن يقال. أنا لا أريد أن أذكرها بشر لكنها مجنونة لا تدري ما تقول.

لقد خف عقلها بالضرب وصارت ترى هلاوس وتحكيها على أنها حقائق. ومن هلاوسها ما تقول أنه سبب قتل المرحومة.

لا يوجد أي سبب لما فعله *علي صالح* إلا أنه انتقام الله من *رضوة* وفعالها. لكن المسكينة *شامة* هي من دفع ثمن فساد ابنتها.

كانت رحمها الله خير معين له. لكنه الكلب الذي يعض من أحسن إليه.

هذه الحادثة درس لابن آدم، أن لا يعمل المعروف في غير أهله.

[٨]

لم يكن ممكناً أن لا يتبع عوض *الكريم* العسكري بكري العربي إلى داخل البيت.

فرغم توتره والذهول الذي اعتراه نفخ صدره كما يحب أن يبدو دائماً ومد كرشه الذي تضخم من سنوات الخدمة التي قضى أغلبها نبطشياً في مكتب البلاغات يتسكع بشبشب منزلي دلالة على الأريحية ورسوخ القدم في عمل الشرطة؛ ثم تنحنح ليجمع بقايا صوته من زوايا الارتباك وولج باب البيت.

على تراب الفناء كان الأثر أوضح من ذلك الذي تبعوه على الرمال. مشى عوض *الكريم* عليه ببصره حتى انتهى به إلى سرير يتوسط الفناء.

نور الدايم في مقدمة الحشد تبعه داخلاً وخلفه تقدم عبد *الباقي* صاحب *الطابونة* عم *علي صالح*.

هذا بيت ابن أخيه فهو إلى حد ما صاحب بيت لكنه يقف مذهولاً كبقية الواقفين ويكبله الحرج أكثر مما يكبلهم.

وقفوا داخل البيت وكلهم يسترجع ذكريات ما يعرفه عن علاقة صاحب البيت *برضوة جبريل* وأمها.

شيء كأنه السحر جمع بين *علي صالح* و*رضوة جبريل*.

ما هي نظارتك المفضّلة؟







توصيل مجاني لباب بيتك

تخفيضات كبيرة وعروض مميزة

وسائل دفع متعددة منها الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14 يوم

% منتجات أصلية 100

أضغط هنا للدخول للموقع

للنساء للرجال

مرحبا بك في نمشي، وجهتك الاولى للتسوق عبر الانترنت. يقدم نمشي تشكيلة واسعة من الازياء والاحذية والاكسسوارات من العلامات التجارية العالمية والمحلية بالاضافة الى الماركات الحصرية الغير متوافرة بالاسواق. يمنح نمشي عملاءه تجربة تسوق سهلة وممتعة وذلك من خلال مواكبة آخر صيحات الموضة العالمية وعرض المنتجات من أشهر الماركات العالمية اضافة الى توفير خدمات عملاء من أعلى المستويات. يوفر نمشي خدمة التوصيل المجاني لجميع دول الخليج العربي ولبنان و خدمة استبدال المشتريات مجانا خلال 14 يوما.

نمشي

@THEBEST4YO





ساعة نزق ، الشياطين رعتها وقدّرتها.

العروس التي حافظت على نفسها وشرفها طول عمرها فلم تسجل نميمة القرية عليها أي خروج على الخلق ثم قررت في لحظة أن تنكص عن كل هذا التاريخ لتتمرغ مع العربجي في وحل العلاقة. لوثة غير مفهومة.

أما أمها – المرحومة – فقد أثبتت استحقاقها للسمعة السيئة التي صحبت شبابها بموقفها من تلك اللوثة. لكنها مثلهم – في الغالب – لم تعرف لها سبباً.

حليمة زوجة خضر الجزار تظن أنها تعرف السبب. لكن أحاديث *حليمة* في *الكونج* هي للمسامرة لا التصديق. وحتى لو كانت أحاديث *حليمة* صحيحة فإنها لا تشرح لهم سبب لماذا هم هنا الآن في منزل *علي صالح*. إن الأثر لا يكذب لكن ما يقوله غير معقول.

القرية كلها تشهد على خروج الأثر من جوار سرير *شامة* قافزاً الحائط منحدراً إلى عند السرير المتوسط فناء بيت *علي صالح*.

عبد *الباقي* عمه همس لنفسه **بعد أن فضحنا بالمرأة ها هو يهلكنا بأمها. قبحه الله ابن كلب".**

علي صالح يتمدد بجسده الضخم وقميصه القصير على السرير غير عابئ بالشمس التي تغطيه. كان يشخر بعمق.

هل هذا الذي على يده وثيابه دم ؟

تقدم عوض *الكريم* نحوه وهزه.

بكري العربي كان يقف جوار نعل *علي صالح* حيث ينتهي الأثر كأنه جندي يحرس غنيمة معركته.

لقد تتبع أثر النعل ولا شأن له بمن كان أعلاه الآن.

فما لم ينكر *علي صالح* أن القدم التي كانت داخل هذا النعل وهو يقفز حائط منزل *السر بلة* هي قدمه فإن بكري ليس لديه ما يقدمه. إن أنكر فإن في مقدرة *بكري* أن يخبر إن كان الأثر هو أثر *علي صالح* أم لا بمقارنة سريعة بين أثرين. أما الآن فقد عثر على النعل المتهم. صاحب النعل من اختصاص عوض *الكريم* ما لم يجد جديد.

شخر *علي صالح* وتململ في مكانه.

هزه عوض *الكريم* مرة أخرى، وناداه أكثر من صوت في غلظة.

عبد *الباقي* كان الأعلى صوتاً.

هب *علي صالح* جالساً فجأة وهو ينخر وعيناه محمرتان ووجهه متورم بالنوم.

على جانب فمه كان خيطاً من اللعاب يسيل منحدراً إلى ذقنه.

استوى *علي صالح* جالساً وهو يجيب بتلقائية الأصوات التي نادته **مرحب .. تفضل**".

لمّا رأي عوض *الكريم* يمد كرشه أمام وجهه وخلفه أهل *الكونج* يحتشدون على باب بيته بعضهم في الفناء وبعض يطل من الخارج في ترقب استيقظ تماماً.

قال له عوض *الكريم* "**أنوم هذا أم موت ؟ ألم تسمع ضجيج دخولنا ؟**

فرك *علي صالح* عينيه وهو يجيب **النوم موت يا *عوض***

اعتدل في جلسته ودس قدمه اليسرى تحت فخذه الأيمن ومد يده اليسرى يتكئ بها على السرير.

قال له عوض *الكريم* وهو يتحسس طريقه ليخبره بسبب وجودهم هنا **لقد قُتلت *شامة على الله***

سلّمه *علي صالح* نظراته داخل عينيه في هدوء وهز رأسه كمن يسأل **ثم ؟**

عوض *الكريم* شعر أنه يقف أمام سور عال متين من العجز يتحسس سطحه ويدور حوله محاولاً أن يجد فرجة يجتازه منها. عاد يسأل **ألم تسمع كل هذه الضجة والعويل ؟** ".

هز *علي صالح* رأسه أن لا.

للمرة الأولى يرى أهل *الكونج* عوض الكريم متحرّجاً عاجزا لا يجرؤ على اتهام شخص مباشرة.

نور الدايم سيسخر منه قائلاً **قربة ضخمة من الإدعاء. عند أول اختبار جدي ظهرت حقيقة عوض *الكريم الأحمر*. لقد وقف ذلك اليوم أمام *علي صالح* وهو يوشك أن يعتذر له ثم يسأله لو سمحت هل أنت من قتل *شامة* ؟**

نزع عوض *الكريم البوريه* فبدا رأسه الأصلع يلمع بـــالعرق. جلس جوار *علي صالح* فتزحزح مفسحاً له مكاناً في السرير الذي أنّ تحتهما.

أدار بصره ينظر إلى الفناء. ترابي فسيح على جنباته أشجار ريحان زاهية تفعم رائحتها المكان. وعلى شماله غرفـــة قـــصيرة مفتوحة الباب يبدو داخلها أثاث هزيل، وجوارها برندة من الطوب النى لم تكتمل بعد.

نظر عوض *الكريم* إلى الحشود فـــي غـــيظ مـــن وجـــودهم واهتمامهم ، ثم نكس بصره وقال في تردد " **يـــا علـــي ! بعـــض الناس يقولون أشياء عن سلوكك ونحن لا شأن لنا بهذا. سلوك الإنسان الشخصي شيء يخصه هو**

تجاوب معه *علي صالح* قائلاً **مفهوم مفهوم** " ثم التفـــت إلى الوقوف وقال لهم **تفضلوا يا جماعة! لماذا تقفون بعيـــداً ؟ أدخلهم يا عمي**

همّ عبد *الباقي* أن يتقدم لكن عوض *الكريم* الـــذي لـــم ينـــسه التوتر واجبات الشرطي انتهر الوقـــوف بـــسرعة **حـــاذروا أن تتقدموا فتطمسوا الأثر**

لم يبد على *علي صالح* أي اهتمام بما قاله عوض *الكريم* فقـــد كان يمسح كفه اليمني في الملاءة ليزيل عنها الدم.

أقدم عوض *الكريم* فقال" **يا علي ! هـــذا الـــدم** وأشـــار برأسه إلى يد *علي صالح* **والأثر الذي تتبعناه إلى هنا .. !!**

"**مالهما ؟** سأل *علي صالح* في هدوء.

كأننا نحن المذنبين سيفكر عوض *الكريم* حين يتذكر ذلك اليوم، لكنه لن يجرؤ على التصريح بهذه الفكرة يوماً **كان هادئا متماسكا ونحن نتلعثم وتختلط الأشياء علينا حتى لا نميز ما يمكن أن يقال عن ما لا يقال. هل *علي صالح* هو المجرم أم نحن؟**"

من أين أصابك هذا الدم ؟

بثبات كأنه يجيب عن أمر معلوم أجاب *علي صالح* إنه دم *شامة*

قفز عوض *الكريم* واقفاً وصاح الله أكبر **!! هل قتلتها ؟**".

هز *علي صالح* رأسه وقال **نعم. أمس بعد منتصف الليل**".

سيجلس *مالك زيادة* يوماً في السوق ليواصل الحكاية لرفاقه ويقول عن هذه اللحظة

ما أن نطق *علي صالح* بإجابته حتى انفلتت عمّه عبد *الباقي* من وسط الحشد وصفعه. لا أدري ماذا دهاني لكني وجدت نفسي أقفز خلفه وأهوي بقبضتي على رأسه. ثم جاء خلفي آخرون

عوض *الكريم* العسكري قفز مبتعداً حتى لا يقع الضرب عليه وقد انكب الناس على *علي صالح* يضربونه بعنف. يشتمون ويبصقون عليه. حين كثر الضرب عليه أخذ *علي صالح* يصيح "**لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله**

عبد *الباقي* صاح وسطهم **اقتلوه ودمه علي اقتلوا الكلب وحرام عليّ أن أدفنه أو أبكيه اقتلوه وأعطوني جثته أشعل بها فرن الطابونة".**

نور *الدايم* سيقول " **ليتنا قتلناه في مكانه. ربما فكرنا في ذلك حتى قبل أن يدعونا *إليه عبد الباقي* لو كان مات هناك لدفناه ودفنا *شامة* وتكتمنا الأمر بدل الفضيحة التي لحقت *بالكونج*. لكن هل كان *عوض الكريم* يقدر أن يفوّت فرصة لا يستعرض فيها سلطته ؟ يتصرف مرة واحدة كالبني أدمين العاديين ؟ الصلاة على النبي".**

عوض *الكريم* ما كان ليسمح لهم بقتل متهم أمامه.

سحب *طبنجته الميري* وأطلق رصاصتين في الهواء وهو يصرخ فيهم أن يبتعدوا.

تراجعوا فهوى *علي صالح* أرضاً على يديه وركبتيه وهو ينهج وقد اختلطت دماءه بدماء *شامة* على قميصه.

"**لعنكم الله** صرخ عوض *الكريم* **يا حيوانات يا بهائم .. والله لأحبسنكم جميعاً .. تريدون قتل متهم ؟** جذب بكفه الحرة صدر زيه الرسمي وواصل **هل هذا ميري أم طرحة أختي يا بهائم. ألا تخافون هذا الزي ؟ والله لأعلمنكم احترامه حتى تتبولوا في ثيابكم لو رأيتموه في التلفزيون".**

ثم أسند *علي صالح* من تحت إبطه لينهضه وهو يقذف الأهالي بشرر عينيه. تقدم به خارجاً وهو يصرخ **أفسحوا**

الطريق يا بهائم" ثم نادى على بكري العربي **وأنت يا عربي يا نجس! احضر هذا النعل لتحريزه**

التفت إليه *علي صالح* وقال بفم ملئ بالدم **ألا تريد السكين التي ذبحتها بها ؟**

لكزه *عوض الكريم* في غلظة بيده التي يمسكه بها وسأله **أين هي يا عجل ؟**

أشار *علي صالح* برأسه إلى الخلف وقال بذات الهدوء الذي كان فقده حين ضربوه

هناك! تحت المخدة التي كنت أنام عليها".

لم يتمالك عبد *الباقي* نفسه فصاح به **لماذا فعلت ذلك يا معتوه ؟**

هز *علي صالح* كتفيه في لا مبالاة وقال

" **قدر الله**

[٩]

يعود خضر الجزار وهو يحمل أمامه على الحمار خروفاً سمينا.

يقفز عن حماره العالي أمام الباب فتحدث أقدامه على الرمال صوتاً كأنه جوال فول مصري سقط.

خضر يركب حماراً ذكراً عاتياً أبيض اللون يطعمه عيش *الفتريته* يزيد ضخامة بنيانه، فيبدو خضر حين يركب عليه عملاقاً يركب حيواناً أسطورياً. **عمارة من طابقين** كما وصفه *بدرالدين* نقد يوماً كان فيه بعد يشتعل بشبابه وتشبيهاته الذكية التي تضحك القرية قبل أن يسكن مرض السكري جسده فيطرد ساقه ثم يسوقه أمامه إلى الموت بعد ذلك بعام.

يتناول خضر الخروف الذي أصدر مأمأة دائخة كأنه يشكو ارتفاع الحمار الذي حُمِل عليه. يحتضنه تحت ساعده وهو يشق الجموع. ينهر الناس بصوته الحلقي كأنه يجمع بلغماً سيبصقه فجأة " **الطريق يا عباد الله الطريق يا ناس**".

يفسحون له فيدخل مهرولاً بالخروف على جنبه كمن يحمل قربة ماء. خضر عملاق مهول الهيكل يبدو مخلوقاً على عجل من عدة عمالقة. فرغم ضخامة جذعه إلا انه لا يبدو متناسقاً مع

ساعديه الضخمين أو رأسه الغليظ كصخر الجبل، وتحت بطنه المسحوب ساقان مصبوبتان كأنهما ساريي مركب. مجموعة من الأعضاء الضخمة تم ربطها سوياً بلا تنسيق.

لونه الأسمر لا يشبه سمرة أهل القرية فيعدونه أبيضاً ويتعجب هو إذ يعد البياض ما كان يراه في السيّاح الذين يقصدون قريته في صعيد مصر قديماً. لكن *الكونج* دشنته أبيضاً ولم تقبل تعجبه. ملامحه غليظة وأنفه الضخم يحتل أغلب مساحة وجهه حتى يبدو شاربه المعلق أسفل منخره بائساً معدوم الحيلة كأنه يتسلل إلى فمه هرباً من تغول الأنف.

حلّ خضر *بالكونج* قبل أعوام بعيدة جداً. حين وصلها كان نحيلاً طويلاً يجر خلفه زوجة متوترة كقطة أم. لم يقدم تبريراً لقدومه إلا كلمة واحدة **الرزق** ". لم تعلم *الكونج* ما حال الرزق شمالاً منها نزولاً حتى قرية خضر خلف حدود مصر حتى يجتاز المصري كل هذه المسافة ليطلبه هنا. لكنها قبلت تبريره بعد أن استنفذت حيل التكهن والاستنطاق.

عمل خضر في عدة مهن قبل أن يمتهن الجزارة. وأثبت فشلاً في كل مهنة امتهنها لكن *الكونج* حفظت له إخلاصه وتفانيه في جميع المهن التي فشل فيها. الجزارة كانت المهنة الوحيدة التي نجح بها حتى كادت القرية تنسى أي مهنة امتهنها سابقاً وألصقت به صفة الجزار لتتبادل الشهرة مع نسبة *الريافي* التي لحقت به لتثبت قدومه من ريف مصر.

ومع امتلاء جسده وظهور عملقته كان خضر يتزوج ويغرس جذوره في *الكونج*. فتزوج أولاً امرأة من بقايا الرقيق أثار الفارق بين لونه ولونها سخرية ومزاحاً كثيراً. ثم كان زواجه الغريب من *حليمة* بنت أخت *الطاهر* نقد تتويج تجنسه الكامل بجنسية *الكونج*.

وقد حرص خضر أن يتخلق بأخلاق *الكونج* ليكمل حقنه الكليّ في شرايين القرية. تعلم العادات على مهل وبصبر وجلد حتى صارت خُلُقاً لا تخلّقاً. لكنه ظل يحذر أن يأخذ لنفسه حقوق ابن البلد كاملة خشيةً من ردة فعل غير محسوبة. ذكاءه الفطري نبهه أنه سيظل دوماً خضر الريافي الذي لا تعلم *الكونج* لماذا نزلها. أولاده – حتى الذين أنجبتهم له زوجته المصرية – سيكون لديهم فرصة أن يصبحوا مواطنين كاملي الحقوق. أما هو فسيظل دوماً مواطناً ناقص المواطنة حتى لو ظهر على *الكونج* أنها تعامله بغير ذلك.

لذلك ما أن اقترب من حوش الحريم في الفناء المقسوم إلى قسمين بحائط طيني قصير حتى وقف وتنحنح وقال بصبر نافذ **يا ساتر** إنه الريافي الغريب الذي لا حق له أن يدخل فجأة على نسوة غير مهيئات لدخول غريب عليهن.

ظهوره وصوته أحدثا حركة متوترة وسط النساء قبل أن تهتف به إحداهن أن يواصل طريقه.

عبر خضر حوش الحريم وسط النسوة الباكيات وهو يراوغ حذر أن يصطدم بإحداهن.

كن النساء يهمن في الحوش وهن يصدرن صوت الأنين الباكي الرتيب وتردد الواحدة منهن كل فترة الرحمة على الميتة ثم تتمخط وتواصل سيرها المهتز وهي تئن مرة أخرى.

كلما أحست واحدة أن الحوش قد هدأ ولو قليلاً فإنها تصرخ فجأة وتشرع في الولولة وتجري بغتة نحو الحائط لتصطدم به ثم تقع متمرغة على الأرض وهي تجأر باسم الميتة.

تتقلب على الأرض فتثير الغبار كأنها حمار يتشمّس فيلتف حولها النساء ويأخذن في النواح حيناً ومطالبتها بتوحيد الله والاستغفار حيناً آخر. فإذا استجابت ونهضت تمسح دموعاً وهمية وجلست تحت الحائط تصدر أزيزاً كذنّان دائخ اندفعت واحدة أخرى لتكرر ذات المشهد هرباً من لوم ما بعد العزاء أنها ما أخلصت في الحزن.

كاد خضر يطأ إحدى المتمرغات فشتم في خفوت وقفز فوق الجسد المتلويّ.

عند نهاية الحوش ألقى حمله وانقض عليه قبل أن يجد الخروف الوقت الكافي لينهض. ثبته على الأرض بيد واحدة ثم تناول بيده الأخرى سكينه من أعلى عضده ووضعها على عنق الخروف. رفعها وخفضها ثلاثا وهو يكبر الله ويسميه ثم ذبح بحركة سريعة.

نخر الخروف ورفس بعنف لكن خضر ضغطة بركبته كأنه يجبر الروح أن تندفع عبر الفتحة التي أحدثها بدل أن تتخبط داخل الجسد.

لحق به *مالك زيادة* ليقدم مساعدة لا يحتاجها خضر. فتعليق الخروف وسلخه وتقطيعه ثم تكسيره إلى قطع صغيرة أمر سهل جداً لخضر يمكن أن يمارسه بيد واحدة وهو يشرب الشاي الثقيل الذي يدمنه ويعده بنفسه في ذات الوقت بيده الأخرى.

لكن *مالك* الذي عاد مع الجموع متبعاً *عوض الكريم* العسكري القابض على ساعد *علي صالح* حتى أركبه البوكس وتحرك به إلى المركز لم يكن يمد المساعدة لعجز في خضر.

مالك – صاحب أحد الدكانين اليتيمين في القرية – كان يحب *ياسمين* ابنة *نور الدايم*. حين يراها يسمع كل أغنيات الشوق التي غناها *النعام آدم* ومحمد *كرم الله* وصديق *أحمد*. وحين تغيب يسمع ذات الأغاني. يمنحها قطع حلاوة *الطحنية* مجاناً فوق البيعة ويتساهل معها في الأسعار ويخصها بقطع مكعبات المرق التي لم تنتهي صلاحيتها بعد.

ياسمين بمقاييس كثير من شباب *الكونج* ليست حسناء، فهي طويلة، نحيلة، عريضة الكتفين كأنها رجل فارع ،و صدرها صغير كليمونة تخبيها تحت ثيابها. لونها الأسمر يميل إلى السواد، إلا ان *مالك* لا يرى فيها إلا وجهها الوضّاء وابتسامتها الخجول الواعدة. متجاهلاً الخلل الواضح في صف أسنانها السفلي. كما أن

أمها النمّامة عيب لا يقل خطورة عن لو كانت تحمل حدبة على ظهرها. لكن *مالك* ما كان يرى غير محامدها التي يكثّرها وحده.

يحرص أن يكون قريباً من كل مكان هي فيه. كل صباح حين تخرج راكبة الحمار خلف أحد تلاميذ الثانوية متجهة إلى مدرسة البنات في القرية المجاورة يخرج *مالك* إلى الشارع بقميصه القصير ليتبختر أمامها بعضلات جسده وشبابه الحار. يعلو صوته وهو يمازح المارة لترى كم هو لطيف وصاحب فكاهة. ينهر أحد الشباب من أنداده ليبعث إليها رسالة أنه حازم مهاب الجانب ممن هم في سنه. وفي العصر يترك دكانه ويسرع إلى البئر لينشل الماء لكل الفتيات لتعلم ما ينطوي عليه من مروءة.

الآن ما كان ليضيع فرصة تراه فيها صاحب حزم ورأي. في مناسبة كهذه يظهر معدن الرجال أصحاب الرأي الذين يقررون كل شيء ويفرضون سلطتهم. فتطوع باكراً ليكون تحت إمرة والدها. ورغم أنه يسخر منه ويعده مدعياً مسرحياً إلا أن *مالكاً* كان يعتبر أعظم انجازات *نور الدايم* هي إنجابه *ياسمين*. لهذا قبل أن يطيع تعليماته تقرباً إلى وجه حبه وإكراماً للانجاز الضخم وطمعاً في الظفر بإعجابها. ونفذ بإخلاص تعليمات إخفاء الجثمان رغم القشعريرة التي انتابته حين لمسه متمنياً أن يذكر *نور الدايم* الحادثة أمام ابنته مشفوعة بالإعجاب بجراءة الشاب وثبات جنانه فيبهرها بشجاعته.

ولاحت الفرصة الكبرى الآن حين تبع *نور الدايم* المتزعم *والسربلة* صاحب البيت وأغلب أولاد *الله جابو* أنسب المنافسين في جماعة من أهل *الكونج عوض الكريم* وأسيره إلى المركز فخلا له الجو أن يثبت مواهبه القيادية. بعد ساعات قلائل سيمتلئ المكان بالمعزين من كل أنحاء الريفي وتحتاج هذه الفوضى لقائد محنّك يرتبها. وهو سيكون هذا القائد.

حين وقف الناس حول البيت يتبادلون الثرثرة والتعجب من الذي حدث قال في حسم محدثاً لا أحد "**للثرثرة وقت وللعمل وقت. مهما كان ما حدث غريباً فإن هناك عزاء هنا. سنقف على مناسبتنا وضيوفنا الآن ثم نثرثر عن ما حدث فيما بعد**". ثم دخل إلى البيت في خيلاء وقوة.

شاب ، فتي، مرح فكه ، قوي ، صاحب مروءة ، مهاب الجانب ، شجاع ، يمتلك دكاناً ، وله مواهب قيادية. لو لم تجن الفتاة بحبه فإنها معتوهة تحتاج أن يربطها *الوراريق* الشيوخ إلى شجرة ويعالجوها بالأحجبة والرقية والجلد.

مالك زيادة شاب نحيل لكنه يشتعل بالحيوية. كان قد بدأ درب التعليم حتى حانت امتحانات الثانوية لدخول الجامعة. صادف ذلك زراعة والده لخمسة فدادين من الفول المصري. رفض *زيادة حسن* سفر ابنه إلى العاصمة للامتحان ما لم يكمل معه ري الفول. تدخل الناس ليقنعوه بخطأ قراره لكنه أصر وتمسك. اضطر *مالك* لتفويت امتحاناته ثم نفض يده عن التعليم وفتح دكاناً.

يحب الغناء ويتسقط أخبار حفلات الزواج في الريفي ليحضرها. يسرج حمارته الرمادية ليلاً ويمتطيها وقد ألقى لثامة من عمامته على وجهه. يمر ببيت *هنادي* بائعة الخمر البلدي فيرتوي ثم يسري إلى الحفل. يرقص على نغمات الطمبور ويهز بعصاه على الراقصات ولا يهاب دخول المعارك. ثم يعود متهاوياً يتلصص إلى البيت فيأوي إلى فراشه قبل أن يستيقظ والده ليؤذن بصلاة الفجر.

وقف يراقب خضر وهو يرفع الخروف ليعلقه إلى عارضة حديدية.أبدى استحساناً لاختيار *الريافي* الخروف فقال خضر متشكياً **الأعرابي اللص باعنيه بأغلى الأثمان. قلت له إنه للعزاء لكنه أصر على رأيه. هؤلاء الأعراب لا نخوة عندهم**" يبصق ثم يقول بغضب **أولاد هرمة كلّهم**

لم يكن *مالك* مهتماً بسعر الخروف لذلك هز رأسه بلا معنى. التفت إلى النسوة القريبات وأمرهن بصوت أغلظ من صوته الحقيقي أن يحضرن أطباقاً وصينية ليضع خضر فيها اللحم. نطق أمره بعجلة ونفاذ صبر كقائد اعتاد الطاعة.

و حين لمح *ياسمين* تحمل *كبايات* الشاي إلى ركن مجاور تحتله زوجة *بكري* العربي تغسل فيه الأواني استعداداً لاستعمالها تمنى أن تكون شاهدت سلطته ونفوذه.

و لمّا رأي ابتسامتها الخجول تجاهد أن لا تكشف عن صف أسنانها السفلي قدّر أنها شاهدت.

[١٠]

بالفضيحة *الكونج* بين القرى.

بينما كان الصائح يتحرك جنوباً عن *الكونج* مروراً بـالقرى القريبة ***كحجر نارتي*** و***كلرو*** و***سِروة*** و***ساب الزبيرية*** معلناً خبر *وفاة شامة على الله* كان خبر المأساة يتسرب كماء النيل المتسلل من شرخ في سد ترابي.

علي صالح العربجي كان على علاقة بامرأة *السر بلة* صاحب البوكس وقتل أمها.

فليعلم الذي لم يكن يعلم من قبل.

خروج الصائح على سيارة ينادي **الحي الله والدايم الله** يكون إشعاراً للناس بالموت ودعوة لحضور العزاء والمدفن.

الأقربون يُبعَث إليهم برسول خاص، لذلك عرف أولاد *الله جابو* المقيمين *بسِروة* في وقت مبكر أن زوجة شقيقهم قُتِلت. بقية الناس - حتى لو علموا بشكل أو آخر - فإنهم ينتظرون خروج الصائح.

ولأن قرى الشمال لا تكاد تعرف الأسرار فإن الرجال وهم يسرجون حميرهم من القرى المجاورة كانوا يتبادلون خبر الفضيحة.

رجال *الكونج* لا يقدرون على تأديب نسائهم فيعشقن ويفجرن، ثم يذبح الفجرة النساء ليلاً.

ينهر أحد الرجال حماره وهو يؤكد " **نساء الكونج زرابين كلهن**".

يذكرون ست *ابتسام* المعلمة. لم تكن من *الكونج* لكن فضائحها كانت في *الكونج*.

بعض سيقول بشماتة **يقولون إن الكونج مباركة حتى الخراء الآن نعلم أن الكونج ما فيها إلا الخراء**".

تتهادى الحمير شمالاً نحو *الكونج* وهي تحمل ركابها وتسري خلفها النساء متلفتات أن تمر بهن سيارة تحملهن.

تطوي النميمة والسؤالات الطريق بين القرى فلا تستمر الشماتة على الأعين طويلاً.

ما أن يصل القرويون إلى بداية *الكونج* حتى ترتسم الجدية ومظاهر الحزن على وجوههم.

وتبدأ النساء اللاتي كن يعتبرن ما حدث "**فضيحة السواد** في البكاء والتحسر على رحيل المرحومة ذات الصيت الحسن.

الشيء الوحيد الذي يتفق عليه الجميع ولا يحاولن إخفاءه بل يتبارون في إظهاره هو لعن *علي صالح*.

فحتى أهله الأقربون سيسارعون إلى منزل العـزاء للخدمة والقيام على الضيوف.

عبد *الباقي* صاحب *الطابونة* رفض الذهاب إلى المركز خلف ابن شقيقه وفضّل البقاء ليقدم الخبز مجاناً للعزاء.

و حين يلاحظ أن بعض الناس يصمتون لمّا يمر بهم سيقف ويقول بصوت عالي سمعه حتى النساء في حوش الحريم " ***علي صالح* مات لحظة ماتت المرحومة. لا شأن لنا به ولا يعنينا مصيره**".

سيتبرأ عبد *الباقي* من ابن شقيقه أكثر من مره ذلك اليوم، ويدفع *في كشف العزاء* مبلغاً ضخماً يؤكد به هذه البراءة.

يجلس القادمون حول *الطاهر نقد* يحدثهم ويحدثونه.

منذ أصابه العمى أصبح من رواد المؤانسة والحكي. يضع – عادة – سريره عصراً أمام منزله ويتكئ عليه يعبث بإصبعه في رمل لا يراه لكنه يذكره. ما إن يسمع خطوات عابر حتى يعتدل ويسأل عن القادم. حين يعرّفه العابر نفسه يناديه *الطاهر* " **تعال يا زول. هات خبراً وخذ خبراً**".

أدمن تسقط الأخبار والبحث عن الحكايات. يسأل عن منسوب بحر النيل، والزراعة، والحشرة القشرية، ومحطة الكهرباء الريفية، وشجارات البيوت، ونميمة الدكاكين، وسيارات السوق الأسبوعية، ومنصرف المشروع الزراعي، وعشق البنات، ولجنة الزكاة، وأغاني الطمبور، وسعر التمباك، وفضائح أستاذ مدني،

ومضاجعة المراهقين للجحوش في الزرائب، والزحف الصحراوي وامرأة الجبل وهل رآها غيره أحد ؟

لهذا كانت المناسبات تّسعد *الطاهر نقد*. يجد فيها عدداً من المستمعين الذين لا يشغلهم عنه شيء. يحادثهم ويحادثونه فيكسر بهم طوق عزلته المظلم.

حين يأوي إلى نفسه يبكي *الطاهر نقد* ويحرص أن لا يسمعه الآخرون يحرص أن لا يسمعوا بكاءه لأنه لا يدري هل يرونه أو لا. وبعد أن يفرغ حنقه يسب *الكونج* وأهلها وامرأته والموتى العائدين وامرأة الجبل وعدوه *نور الدايم*.

لكنه إذا اجتمع حوله الناس وأنشدوه الأخبار والقصص نسي حنقه عليهم وتغنى بمحامد المحبة وإخلاص البشر لأعمى قعيد مثله.

يجلس *الطاهر* في بيت العزاء في وسط حلقة كبيرة من الحضور ويلتقط منهم ما يحكون.

العمى يجعل الناس لا تتحفظ منك. يخلعون ثيابهم أمامك ويجلسون بلا احترام كيفما اتفق. فأنت لا تراهم. وهم كذلك يتحدثون بلا تحفظ. يخلعون المجاملات والحيطة الاجتماعية فيقولون أمام الأعمى ما لا يقال أمام البصير.

يسخرون من *الكونج*. يغلظون عليها وعلى رجالها. يقولون لو كان في *الكونج* رجال لكانوا منعوا *علي صالح* عن فجوره من زمن طويل. يتعجبون كيف لم يقتل رجال *الكونج* – لو كان لهم

وجود – *علي صالح* ليتستروا على الفضيحة التي تسربت كزيت ينساب من برميل وقع على جنبه.

يضحك أحد المعزين بحذر وهو يرقب رجال *الكونج* من طرف " **شوارب لا فائدة منها .. فقط عناء حمولة على الوجوه** ثم يصدر بشفتيه صوت شخير ساخر. يقول هذا أمام *الطاهر نقد* فيجاهد أن لا يتحسس شاربه.

يلوكون الكلام مرارا حتى يفقد طعمه ويغدو ماسخاً فاتراً، حينها يلتفتون *للطاهر* يستنطقونه فيجيبهم بعد تحفظ. يحاول أن يناور مخفياً بعض ما يعرف لكنه لا يعرف هل يبدو على وجهه أنه يخفي أم لا. يحكي عن امرأة الجبل وسر عماه *ونور الدايم* عدوه البغيض وأستاذ مدني الفاجر وست *ابتسام* الزربونة، وينسى – عمداً – أن يحكي عن علاقة *علي صالح برضوة* وأمها فأسرار كهذه لا تقال للأغراب.

يتبدل الجلوس حوله بمرور الوقت.

قوم يأتون فيرفعون أصواتهم بالفاتحة معزين ثم يجلسون إليه. وأقوام ينسحبون في حذر هرباً إلى مشاغلهم وبيوتهم ليعودوا متسللين بعد زمن كأنهم ما انصرفوا قط.

بينما كان يحكي عن *نور الدايم* وادعاءه سمع *الطاهر نقد* أصوات السيارات التي ذهبت شمالاً إلى المركز. عرف أن الناس سينفضوا عنه فمد يده بسرعة وأمسك بأقرب الجلوس كأنه يوليه اهتماماً زائداً. قيّده إليه بكفه واستمر يحكي غير عابئ باللغط الذي أحدثه الوصول المهم.

تفاصيل ما يحدث وحدث ستأتيه بعد أن تنضج ويتم جمعها وتشذيبها وإضافة الاستنتاجات إليها وربط بعضها ببعض. لن يضن أحد على أعمى مثله بالأسرار. لذلك يمكنه الآن أن يلتذ بالحكي.

يحس صيده يتململ في قبضته. يراه بعين بصيرته يتلفت طالباً العون صمتاً بالإشارة والإيماء. لكن من له قلب أن ينبه أعمى أنه يمسك الآخرين عن حدث هام لا يراه.

سيهز الناس رؤوسهم في عجز ويبتسمون ببعض شماتة في صيده ويحكون عنه بعد ذلك أمام الدكان. ما الذي يهمه في هذا.

يميل على صيده أكثر فيحتويه برائحة عماه.

للعمى رائحة عرق قديم دافئة وعطر كلونيا حاد.

يواصل ثرثرته، حين يسمع عبارات عجيبة تتردد.

الأعمى يمكنه أن يغلق ذاته عن الآخرين لكنه لا يقدر أن يكف سمعه. حدة السمع تفسد علي الأعمى أي انكفاء كامل على العزلة.

يأتيه صوت أحد أولاد *الله جابو*

جنون ليس بعده جنون. ذهبنا به هادئاً ، صامتاً كأنبوبة البتوجاز. لم يتكلم حتى وصلنا المركز. أدخله *عوض الكريم* الزنزانة وذهب يتمم إجراءات البلاغ لعرضه على الضابط. اقتربت منه وسألته لماذا فعل فعلته ؟ أجاب بذات إجابته الغريبة السابقة قدر الله ولم يزد عليها حرفاً".

يسأل صوت *زيادة* حسن **فماذا حدث ليغير حاله ؟**
لابد أن المتحدث هز كتفيه في حيرة. ربما قلب كفيه وهو يجيب **لا ندري. حين أخذوه للضابط أخذ فجأة في البكاء والعويل كفتاة رعناء أنه برئ. لقد وقع على أرض القسم وهو يتفلت من العساكر صارخاً ببراءته".**
صاح *نور الدايم* **انه الجنون**
صوت *السرِّيّة* الرفيع يقول " **قال انه كان حلماً**
أفلت *الطاهر* نقد صيده فأحسه ينفلت من جواره بسرعة عشب دحرجته ريح عاصفة. يحوّل وجهه نحو الصوت ويقول متعجباً غير عابئ بهروب جليسه **حلم أنه يقتلها فماتت ؟**
يجيبه صوت **هكذا زعم**
يصيح *السرّيّة* **يظن أنه سيخدع الحكومة بادعاء الجنون. لكن من سيصدق شيئاً كهذا. كلنا نشهد أنه فاجر قاتل. لن يرحمه منّا أحد ولن ترحمه الحكومة. طالما كنا على قلب رجل واحد فإنه لن يخدع أحداً فينا**
تجاوب الناس بالتأكيد والتعجب.
للأحلام في *الكونج* قوة الواقع. وفي كل بيت حكاية عن رؤية تحققت أو دلت على مخبوء. لكن الأحلام لم تقتل في *الكونج* من قبل.
حين يحكي الناس هذه القصة بعد ذلك سيؤكدون أن *علي صالح* كان كاذباً. ربما كان يكسب مزيداً من الزمن لتدبير أمر ما.

ربما كان مجنوناً. التأويلات كثيرة لكن ليس بينها قط تصديق ما قاله.

حملت الحمير في رحلة العودة إلى القرى المجاورة بعد المغرب أعجوبة النكران المفاجئ للقائل المستسلم لقدر الله وحجة الحلم.

تحمّلت *الكونج* أن ترى ابتسامة الشماتة على شفاه الراحلين وعلمت أن الريفي سيضحك منها أشد مما استخف برجالها صباحاً. ستبيت أضحوكة يحكيها النسوة لبعضهن وهن يسرين بالحكاية من بيت لآخر.

ستسأل القرى المجاورة بعضها عن حال *الكونج* ؟

كلّرو الأقرب ستخبر *سِروة* و*ساب الزبيرية* البعيدتين أن *الكونج* واجمة لكنها باقية على بغض *علي صالح* الذي كشف حالها وفضح سترها. حجر *نارتي* ستؤكد دعمها *للكونج* في موقفها لكنها ستسخر منها أيضاً.

و سيتسرب الخبر صباحاً إلى عاصمة البلاد مع العربات المسافرة.

سيسخرون من *الكونج* لكنهم لن يرحموا *علي صالح* الذي فضحها لهم ثم ذهب يدعي الحلم.

لكن القرى ستكتشف في ظهيرة اليوم الثاني – بعد أن تكون العربات السفرية قد غادرت إلى العاصمة – أن *الكونج* لم تبت على قلب الرجل الواحد الذي تركوها عليه.

فحين كان *السر بلة* يحكم غلق أبواب بيتـــه، إذ حـــانٍ نـــوم الباقين وانصرف الذاهبون، كانت سيارة تغادر *الكونج* شمالاً إلـــى المركز لتسمع قصة الحلم من *علـيٍ صالح*.

عبد *الباقي* وأخوته سروا ليلاً إلى ابن أخيهم ليدعموا حلمه.

كان عبد *الباقي* يهمس لنفسه وظلام الخلاء يتمــزق بـــضوء السيارة

الليك ليك   كان لبن عشر ختّو في عينيك

[١١]

إحدى متع قليلة لم يفقدها *الطاهر نقد* بذهاب بصره كانت نسج حبال سريره الخشبي.

حين تتكئ الشمس على قمم النخيل غرباً يحسها *الطاهر* في انكسار حدة النهار الصحراوي الجاف فيأمر أولاده، قبل ذهابهم إلى الزريبة لإطعام البهائم، أن يخرجوا سريره إلى الطريق أمام المنزل.

يحمل في يده لفة من الحبل ويحتضن مخدة خضراء ويسير محاذراً نحو الباب. لم يسمح قط لأحد أن يقوده داخل بيته. كان يقول إن اللحظة التي يفقد فيها طريقه داخل بيته الخاص هي اللحظة التي يتمنى فيها الموت. يتخطى عتبة الباب الطينية ثم ينحرف يميناً ويمد يده بحذر حتى يعثر على السرير. يهبط على أعقابه رويداً ثم يتقرفص جواره. يضع المخدة ناحية ثم يشرع في فك التواءات لفة الحبل.

يأخذ في نسج حبال السرير بخفة واحتراف منصرفاً عن العابرين وتحاياهم، حتى إذا ملّ لملم أطراف الحبل مرة أخرى واتكأ على عارضة السرير وأخذ يعبث في الرمال منتظراً صيداً عابراً يأخذ خبراً ويعطيه خبراً.

الطاهر اجتاز بعمره منتصف السبعين. لذلك هو مطمئن أنه لن يموت شاباً كبدر *الدين* أخيه. ترك الشباب خلفه بزمن، فلا توجد أوهام هنا. هو قد انتصر على الموت لأكثر من سبعين عاماً فلن يزعجه أن يربح الموت فيه جولة. خمري اللون ملامحه أليفة كأنه شخص تعرفه. لكنه صارم حازم كأي موظف قديم. يعرف العابرون أنه صاحب مزاج متقلب جارف كشيمة بحر النيل. فيتحينون ساعة الصفاء ليجالسوه ويحدثهم.

يسأله العابرون أحياناً عن موت *شامة* وكيف كان الخبر. يتعوذ بالله ويستلقي على مخدته وينصب ساقه اليسرى ويعامد اليمنى عليها. يدخل لسراديب الحكاية قائلاً

يقولون إن هذه البلدة مباركة أنا أقول لك أنها ملعونة تماماً. قرية شيخ جامعها نسونجي وزناوي ابن ستين كلب، ومدير مشروعها الزراعي مدعيّ متبختر لص أثيم اسمه *نور الدايم* وهو سخط الدايم، وواسطة نفوذها في المركز رجل عاق كسر قلب والده فظل يلعنه إلى أن مات ، فكيف حالها بالله عليك ؟

قرية لو سألتها عن الشرف تشتم ست *ابتسام* المعلمة وتقول إنها اللعنة الوحيدة التي عرفتها. عمل أهلها النميمة والزراعة في وقت الفراغ. إنها قرية ملعونة لا تقبلها نار جهنم حطباً لها.

أنا كنت مثلهم أعمى أظنها خير بقاع الأرض لكن الله فتح بصيرتي فرأيت.عملت في البوستة فتنقلت وعرفت ثم عدت إليها أظنها بلد الله والرسول، فاكتشفت غفلتي. أنا لست أعمى بل هم

العميان. لو سألت أشجار النخيل لقالت لك إنها لا تبقى هنا إلا عجزاً عن الهرب. يوماً سيلتفت الله إلينا ويحملنا إلى سابع سماء ، يقلبنا ، ثم يخسف بنا سابع أرض.

أنا مثل أهل الكونج أنم وأغتاب ، لكن ليس على الأعمى حرج. لقد أخذت نصيبي من العقاب. رأيت شقيقي الأصغر يموت على قطعتين أمامي. فقدت ابني البكر في حادث احتراق لوري *جبريل الله جابو* على الطريق السفري، مات هو وعروسه في طريقهم للعاصمة لقضاء شهر العسل وتركني زواجه مدينا لحشائش الأرض ورمال الصحراء، وعرفت الرعب في ليلة الجبل ففقدت بصري.

لو كان في هذه القرية من دفع الثمن فهو أنا ، وبعدي بمسافة تأتي المرحومة *شامة* والشقي *علي صالح*.

علي صالح ليس مجرماً إلا بذات قدر إجرام كل هذه القرية الملعونة.

خذ عندك *نور الدايم* مثالاً. كان فقيراً لا يملك من الدنيا إلا قراريط قليلة من الأرض لم يفتح الله عليه بزراعتها، فتركها للحشائش والبوار. لكنه رزق الإدعاء والكذب فأصبح مدير المشروع الزراعي. طوال عمره كان عارياً ويلبس صديرية. رأيناه يغتني ويكثر ماله لكن لم يسأل أحدنا من أين اكتسب ما اكتسبه. حين اشترى الثلاجة دعا كل القرية لتشرب الماء البارد منها. ويفخر بها كأنها ابنة البكر. حين عصفت السماء وأظلمت

الدنيا في خريف قاسي فزعنا نحكي عن ما حدث لكل واحد منا وكيف ضل أغلبنا طريقه إلى سريره في جوف غرفته الخاصة. نور الدايم كان يحكي أن الدنيا أظلمت حتّى اضطر إلى دخول بيته بنور الثلاجة. مدعي فخور.

أمّا أستاذ *مدني* النسونجي فقد ورث المسجد عن أبيه. يقف يخطبنا عن كلام الله ورسوله وهو جُنب على ثيابه بقية من ريق امرأة كان يضاجعها قبل أن يخرج للمسجد. يقرأ لنا عن أوراق والده التي سمعناها تتلى علينا آلاف المرات. كان والده ينقل خطبه عن كتب الخطب المنبرية القديمة ، وهو ينقل عن أوراق والده.

كان عشيقاً لست *ابتسام* المعلمة وكان أول مَن سنّ لقياها في الجبل غير عابئ بالجنية الرابضة هناك. كيف يخاف الشيطان من الجنية ؟

و هذا الجحش عبد *الباقي* صاحب الطابونة. تظاهر بالتبرؤ من ابن أخيه المسكين ثم انقلب مدافعاً شرساً عنه. يعرف الجميع أنه يغش الخبز ويخلط الدقيق بالجبس.

كلهم مجرمون أنجاس ليس *علي صالح* بشرّهم.

كنت أعرف أن البائس على علاقة *برضوة جبريل*. لا أنكر أني قديماً كنت على علاقة بأمها المرحومة. كانت *شامة* في شبابها زربونة أيضاً. والبنت سر أمها.

عملي في البوستة كان يتنقل بي بين عدة مدن لكنني أعود في كل إجازة إلى *الكونج*. وحين أعود آخذ مكاني بين رجال *شامة*. استغفر الله من ذلك الزمن. الشباب ونزقه.

في ليلة أخذتني الخيالات وتذكرت الزمن الماضي. استغفر الله من ذلك الزمن. خرجت إلى الطريق انظر السماء واستنشق بعض الهواء. رأيت *علي صالح* يمر متخبئاً بالظلام فتبعته. استفزني الفضول لأعرف هل البنت كأمها في الفراش ؟ كانت *شامة* شبقة تنخر وترهز إذا اعتليتها.

تبعته إلى بيت *السربلة* ورأيته يقفز الحائط الغربي إلى البيت.

تريثت قليلاً ثم قفزت خلفه. وقفت أسفل شباك *البرندة* وراقبته يضاجع *رضوة جبريل*.

أعوذ بالله مما رأيت. لم تكن البنت كأمها. كانت شراً منها. تتلوى وتئن وتنثني على نفسها وعلى رجلها وتفعل البدع.

لم أتحمل ما أرى فعدت أدراجي. كنت مشوشاً مذهولاً فقادتني أقدامي إلى الجبل. القمر يتخبأ خلف سحب عابثة والهواء ضجر ساكن. الكلاب تنبح بعيداً وتجيبها أصوات الليل المجهولة.

رأيت خيالاً يسري هابطاً الجبل. ميز المعلمات كان مهجوراً من زمن بعيد. فكّرت أن أستاذ مدني عاد إلى فجوره هناك مرة أخرى. لسبب لا أدريه نسيت امرأة الجبل. ملأني الحنق وتقدمت

إلى المرأة ظناً مني أنها أحدى نساء *الكونج*. أردت أن أمسك بها فأضربها وأفرغ بها ما أحسه

كانت تمشي على مهل كأنها تمتلك كل الوقت في هذا العالم. لم تكن عجلة كامرأة تفر من عيون الفضيحة. حين أصبحت قربها صحت أناديها بصوت خافت. لم تلتفت فأسرعت نحوها وأمسكتها من يدها.

حين لمستها شعرت بالبرد. دق قلبي بعنف وهرب الدم من أطرافي.

التفت إليّ فعرفت أني أخطأت. يا لي من أحمق. عجوز عاجز على قمة الجبل وحده أعزلاً إلا من عصاه.

صحت **لا إله إلا الله** ورفعت عصاي أدفعها بها عني.

شعرت بولي يمر على ساقيّ بارداً ثلجياً. أفلتها وتراجعت فسقطت على ظهري. تقدمت نحوي ومالت عليّ.

وجهها كان أبيضاً كجير الحيطان وعلى خديها خيوط زرقاء. وشعرها يبدو أسفل ثوبها أسوداً تتلاعب خصله في هواء غير موجود.

ابتسمت لي بشفاه سوداء أشنع ابتسامة رأيتها في حياتي.

وحين ثبتت عينيها على عينيّ شعرت بالوجع.

ألم يمتد من محاجر عيني إلى كل جسدي. صرخت وصرخت وصرخت.

استغفر الله العظيم. من عاش هذا الرعب هل يحاسبه الله بعد ذلك ؟

نور الدايم يشيع أني عميت من عودة المرحوم *بـدر الـدين* أخي.

هذا كذب. لم حدث أن عاد أحد الموتى في أسرتنا. لقد عاد والد *نور الدايم* لكنه ينكر ذلك ويشيع أن المرحوم *بدر الدين* عاد بعد الموت. موتى أسرتنا لا يعودون.

أنا عميت لأني رأيت امرأة الجبل. ربما كان ذلك عقاباً لما رأيته في بيت *السر بلة*. أو ربما كان الله يحبني فعجّل لي حسابي دون *لكونج*.

ماذا سيقولون يوم يسألهم عن *رضوة جبريل* ؟ حتى الأطفال كانوا يعلمون أنها تنام مع *علي صالح*. لكنهم كانوا يلعنون ست *ابتسام*.

كانوا يسخرون من *السر بلة* ويكنون له الازدراء. ويعجبون *بعلي صالح* الذي يلعنونه اليوم.

يوم ضرب *علي صالح السر* ودخل بسببها المستشفى لم يبق في *الكونج* من لم يسخر منه.

ملاعين ملاعين بلا أخلاق. ويقولون إنها بلد مباركة.

لهذا فضحهم الله. كشف سترهم وهتك عرضهم بين القرى.

لم يكن *علي صالح* مجنوناً ولا كاذباً حين قال إنه قتل *شامة* لأنه قدر الله.

ليس هناك سبب لما فعله إلا أن الله ملّ كذب *الكونج* وادعاءها.

ولن يكون هذا أخر أمر الله. انتظروا وستروا عجائب قدرته في هذا البلد الذي يخدع نفسه.

اسمعوا نبوءة الأعمى. فهو المبصر الوحيد هنا.

[١٢]

من يوم موته لم يكف خالي *بدر الدين* عن زيارتي . لكني حين أخبر خضر بذلك يخاف ويضربني

تقول *حليمة* زوجة خضر الريافي وهي تهدهد ابنة زوجها. *حليمة* لم تنجب لكنها ربت أربعة من أبناء زوجها من ضرتيها. لها قلب لا يحمل الضغينة وروح شفافة كأنها خُلقت من ضباب الصباح الشتوي. جميلة بكل المقاييس، لها جسد مدملج مثير وعينان مذعورتان.

تعيش منذ طفولتها في قرية صنعتها لنفسها وترى الأشياء لا كما يراها الآخرون.

نحن لسنا من *تَرَب البنِيّة*.

أولئك يمتد نسبهم إلى عهد سيدنا الرسول. جدتهم أودعت ابنتها عند الرسول وذهبت لتقضي حاجة. حين عادت وجدت طفلتها ماتت. حزنت وطلبت من الرسول أن يعيدها لها.مسكينة. لابد أن موت الأبناء قاسي جداً. أخبرها سيدنا الرسول إنها إن عادت فلن يكف نسلها عن العودة من الموت. وافقت على الشرط ، ومن يومها يعود نسلها إلى الحياة. يسمونهم *تَرَب البنّيَة*. نسل الطفلة الذين يعودون من الموت.

نحن لسنا منهم. إنمّا تعود أرواح موتانا لزيارة الأحباء ومن يؤمنون بهم.

من صغري كنت مختلفة. كنت أرى الموت قبل أن ينزل. وأشاهد الموتى يسيرون في صفوف طويلة مخترقين القرية ليلة النصف من شعبان. حين أخبرت أمي بذلك فزعت. أخبرتِ أبي فضربني. وأخذني خالي *الطاهر* إلى شيوخ *الوراريق*. بخّروني وسقوني أدويتهم. كانت مُرّة مقززة. لم تشفني لأني لم أكن مريضة. لكنها علمتني أن أكتم أمري. قلت لأمي إني لم أعد أرى الموتى فارتاح قلبها. لكني كنت أراهم. والدي بعد أن مات جاءني وبكى كثيراً واعتذر لي.سامحته فأنا أحبه وأعرف انه لم يكن يقصد.

خالي بدر *الدين* كان يقاربني في العمر. لذلك يأتيني كثيراً ليتحدث إليّ كما كان يفعل في حياته. لم يعد حزيناً على ساقه بعد أن مات.

ليلة النصف من شعبان السابقة على موت *شامة* رأيت طابور الموتى يشق القرية. في ليلة النصف من شعبان تهز الملائكة شجرة الخلق فتسقط أوراق من كُتِب عليهم الموت في تلك السنة. رأيت في مقدمة الطابور *شامة على الله*. عرفت أنها ستموت في سنتها. أحزنني ذلك فقد كانت *شامة* طيبة معي. حين قررت أن أتزوج خضر كانت هي الوحيدة التي وقفت في صفي. أهلي

غضبوا جداً واتهمتني *الكونج* في عقلي وفي شرفي.سامحهم الله أنا لم أكن مجنونة ولا سيئة السلوك. *شامة* وقفت في صفي. لولاها ما تزوجت خضر. إنه يضربني كثيراً. حد *الزين* تقول لي أن أشكوه لخالي *الطاهر*. لكن خالي يعرف انه يضربني. كل *الكونج* تعرف انه يضربني. وكذلك خالي *الطاهر* كان يضربني. فلماذا أشكو ؟ كما ان خضر طيب. يحبني ويحنو عليّ. أبي هو من نصحني بالزواج منه. جاءني بعد موته بشهر ونصحني أن أتزوج خضر الريافي. قال لي انه ضمان نجاتي حين تنزل *بالكونج* النازلة. لا أعرف ما سينزل *بالكونج* لكني أطعت أبي. ذهبت إلى خالي *الطاهر* وأخبرته أني أريد أن أتزوج خضر الريافي. ضربني خالي وقال غاضباً **هل أنت مجنونة ؟ تريدين أن تتزوجي مصرياً ؟** ، وحبسني في بيته. لكني هربت بالشباك وذهبت إلى خضر في الجزارة وأخبرته أن يطلبني. كان ذلك أمام الناس. تعجب خضر وقال إني مجنونة. لكنه جاء ليطلبني بعد يومين. ضربني خالي كثيراً لكنه اضطر أن يزوجني له بعد ذلك. توسطت لي عنده *شامة* فوافق. لا أدري كيف أقنعته لكنها اختلت به لزمن وسمعته يضحك كثيراً. خالي *الطاهر* لم يكن يضحك لكنه ضحك لكلام *شامة*. ثم وافق بعد ذلك على زواجي من خضر.

عشت معه سعيدة. لم أنجب وجدتي المرحومة تقول لي إني لن أنجب. لكني لست حزينة. أنا راضية بحالي. أربي أبناء زوجي وأسهر مع خالي بدر *الدين*.

خالي *بدر الدين* قال لي أن هناك علاقة بين *علي صالح* و*رضوة*. لم أسمع بها لكنه قال انه يعرف ذلك من حياته ولأنه حين يمر من المقابر إلى بيتي يعبر ببيت *السر بلة*. خالي *بدر الدين* ظنّان. انه يرى *علي صالح* يقفز حائط البيت لكنه لا يعرف ما يفعله بالداخل. هناك سبب منطقي يجعل *علي صالح* يقفز حائط بيت *السر* ليلاً. أنا لا أعرف السبب لكنه ليس السبب السئ الذي يظنه خالي.

قال لي ان *الكونج* كلها تعرف. أنا لم أكن أعرف. لم يهتم أحد أن يخبرني بذلك. ربما لأني أحب *شامة*.

لم يسألني أحد لماذا قتل *علي صالح شامة*. لكنني أعرف السبب. قلت لهم فلم يصدقوني. لقد أخبرني به خالي *بدر الدين*. الموتى لا يكذبون. وحتى لو كانوا يكذبون فخالي *بدر الدين* لا يكذب.

خالي *بدر الدين* مرح مهزار ظنّان لكنه لا يكذب.

كانت *الكونج* تحب أحاديثه وتردد تشبيهاته. كان يصف *السر بلة* بالإصبع السادس. يقول انه كالإصبع الزائد على حافة الكف. أنا أحب تشبيهات خالي *بدر الدين*. *السر بلة* قصير هزيل يهتز كأنه يتدلى عن كف غليظة. كيف تنام معه *رضوة* وهو صغير هكذا؟ الرجل لابد أن يكون جسيماً عاتياً. الرجل الهزيل *كالسر بلة* مضحك. يحتاج *السر* حين يقود سيارته أن يضع تحته مخدات ترفع قامته ليرى. لكن قدمه لا تستطيع اللحاق بالدوّاسات. لا أعرف كيف يقود سيارته بهذا الجسم.

خالي بدر الدين كان سبب مشكلة بين *السر بلّة* وعلي *صالح*.

عرفت هذه الحكاية حين حدثت. حدثني بها خضر وجئن نسوة *الكونج* يلمن لي خالي.

كان يجلس أمام الدكان حين وقف *السر* بسيارته البوكس وكان معه مشوار يأخذه إلى الشيوخ *الوراريق*. سأله خالي هل يركب السيارة قط لمشاويره الخاصة ؟ أجابه *السر* أنه يقضي مشاويره الخاصة على قدميه ويترك ركوب السيارة للأجرة. ضحك خالي *بدر الدين* وقال له **يا لك من مسكين. ولا حتى سيارتك تركبها وحدك؟ كل مركوبك لابد أن يشاركك فيه أحد. هل يركب أحد معك حذاءك أيضاً؟** ". ضحك الناس في الدكان على كلام خالي *بدر الدين*. كانوا قساة جداً على *السر* المسكين. ليس لطيفاً أن يسخر منك أحد ويضحك الناس.

غضب *السر* وهاج. حلف أن يقتل *علي صالح* حتى لا يسخر منه الناس مرة أخرى. خطف منجل *بكري* العربي من أمامه وجرى هائجاً كثور شرس يبحث عن *علي صالح*. لم يقم أحد خلفه واكتفوا أن يشيعوه بالسخرية. *نور الدايم* زوج حد *الزين* قال **يقتل *علي صالح* مرة واحدة ؟ الصلاة على النبي**

عثر *السر* على العربجي المسكين أمام الطابونة. كان يتجهز للذهاب إلى *رضوة* فقد أتاه رسولها أن يحضر ليصلح لها شباك المطبخ المكسور. شبابيك بيت *رضوة* دوماً مكسورة. هجم *السر* على *علي صالح* بالمنجل.

علي صالح ضخم كأنه *بنطون*. أمسك يد خضر وحمله من على الأرض. لوّح به ثم خبطه بالأرض ثم انكب فوقه. جلس عليه وأخذ يدفن وجهه في الرمل. ثم أخذ المنجل ومزّق به ساعدي *السر بلة*.

صرخ *السر* وبكى . لو لم ينقذه عبد *الباقي* لقتله *علي صالح*.

دخل *السر بلة* المستشفى لأربعة أيام. أراد أن يشكو *علي صالح* لكن عوض *الكريم* العسكري انتهره وقال له ان رجل مثله ليس له حقوق. عوض *الكريم* قاسي جداً لكن الأطفال يحبون زيه الميري. يبدو حلواً عليه.

شامة أخذت ابنتها *رضوة* إلى المستشفى وصالحتها على *السر*. ونامت *رضوة* في المستشفى أربعة أيام تمارض زوجها.

خضر قال لي أن *علي صالح* ذهب إلى المستشفى أكثر من مرة. لابد أنه ذهب يعود *السر* ويعتذر له. *علي صالح* طيب القلب. *السر* حاول قتله لأن خالي *بدر الدين* مازحه. ما دخل *علي صالح* بمزاح خالي ؟ لكن رغم ان *السر* اعتدى عليه فقد ذهب للمستشفى ليطمئن عليه ويصالحه.

أنا أحب أهل *الكونج* لأنهم طيبون ويحبون الخير لبعضهم البعض. حتى الغرباء لا يضن عليهم أهل *الكونج* بالمساعدة. كانت هناك معلمة غريبة عن القرية اسمها *ابتسام*. كانت تسكن ميز المعلمات فوق الجبل. كانت تخاف الظلام فكان شباب القرية يتطوعون للمبيت معها لحراستها. كان أستاذ مدني أكثر المتحمسين لحراستها. في مرة قلت لأمي أني لا أخاف الظلام

وأريد أن أطلع الجبل لأنام مع ست *ابتسام*. فزعت أمي وضربتني وجعلتني أعدها أن لا أتفوه بهذا الكلام مرة أخرى.

ست *ابتسام* كانت لها ابتسامة حلوة. كأنها تحقق اسمها. ابتسامتها تشبه ابتسامة *ياسمين* بنت حد *الزين*. وهي ليست مثلها. لا تخاف الظلام. خالي *بدر الدين* كلمّا خرج من عندي قرب الفجر يقول لي انه يخشى أن تراه *ياسمين* فتفزع. يقول أنها تخرج من بيتهم بعد أن ينام أهلها لتقابل أولاد المدرسة الثانوية في طرف القرية وتعود قرب الفجر. أظن أنها تذاكر مع زملاء المدرسة حتى وقت متأخر. المذاكرة في الليل ليست جيدة لصحة البنات. أنا كنت في المدرسة وأعرف ذلك. لكني نسيت القراءة الآن. لكن من يحتاج القراءة في *الكونج*؟ قريتي طيبة وادعة لا تحتاج تعقيدات التعليم".

[١٣]

تنام *الكونج* على حضن منحنى النيل في شمال البلاد.

تجري الأفعى المقدسة هابطةً من قلب القارة شاقةً الخضراء حتى تصطدم بالصِجاري التي تكسر حدتها فتنثني على نفسها تزمع النكوص ثم تقدِم. وفي حضن نكوصها ترقد *الكونج* غافلة عن تقدمها ونكوصها. لا يشغل القرية مسرى النيل ولا نهايته. فهو هنا منذ تفتح نخيلها وهو هنا بعد أن تسقط أزهار البرتقال. منكفئةً على نفسها تقتات حكاياتها وتمضغ بنيها. يلهيها عن ما حولها أنها القرية ذات الخراء المبارك، وكفى.

الآن كانت قلقة تزعجها الفضيحة. ما كانت تقدر أن تسامح *علي صالح* على ما فعله بها وما كانت تقدر أن تسخط منه. فهو منها، وهي على بنيها في قسوتها حانية وفي حنوّها قاسية.

تحاول عبثاً أن تسقط ذكره لتغبّش على فضيحتها بحكايات أخرى. تهمس بحب *مالك زيادة ياسمين نور الدايم* ، تقص خبر عداء *الطاهر نقد* ونور*الدايم* ، تسخر من د. *إبراهيم* ، تحاول أن تشتم *ست ابتسام*، لكن حكاية *علي صالح* ترفض أن تخبو. كل يوم يشرق بمفاجأة جديدة حتى باتت تخشى الفجر.

أنكر *علي صالح* قتله *شامة على الله* فأعانه أهلـه. وانقسم الناس بين ذام لهم ومؤيد لفعلتهم. تباعدت مواقف بنيها حتى كادت تصبح قريتين.

تمترس عبد *الباقي* وإخوته وراء تجاهل التبريرات واكتفوا بإظهار الغضب من اتهام ابنهم الذي لم يقتل المرأة بل حلم أنه يفعل. قال عبد*الباقي* **فلينظر *السر* وأولاد *الله* جابو وآل *على الله* من قتل *شامة* بينما كان ابننا يحلم في سريره. يقبلون أن تسامر *حليمة* المجنونة الأموات لكنهم يستكثرون على ابننا أن يحلم بالجريمة ساعة وقوعها. الرؤية الصادقة من الله".**

يقول " *علي صالح* كاسم أبيه صالح. **فهو اسم وصفة ولا يوجد من يعلم عنه عيباً في الريفي كله** يقول هذا ثم ينظر للآخرين في تحد منتظراً أن يعترض أحد فلا يقدرون.

يرفل عبد *الباقي* بجلبابه الأبيض كما ضميره المرتاح لبراءة إبن أخيه في شوارع *الكونج* الرملية متصيداً نظرة لوم ليبدأ الشجار والتهديد.

هل الحلم جريمة ؟ *الوراريق* الشيوخ يحلمون بالغيب ويظهرون المخبوء. تباً لكم من قرية بائسة. الزنا على منابركم وصالحكم في السجون ؟"

"دم *علي* ابن أخي له عدل فيكم. وعدله ليس رجلاً واحداً والأيام بيننا".

"دليلكم شهادة أعرابي نجس لا يصلي؟ ماذا تعني آثار قدم ؟ *علي صالح* يدخل بيت *السر* كثيراً ليصلح شباكاً أو يحمل حملاً

بعربة الكارو .. من الطبيعي أن تكون آثاره مطبوعة في كل بيت".

"**يعترف أو لا يعترف لا يهم. ابننا لم يقتل المرأة ونحن معه".**

ثم يقرر منع خبز طابونته عن متهمي *علي صالح*.

لتلافي النزاع يضطر خضر الجزار أن يذبح مرتين في الأسبوع فيجعل يوم الثلاثاء *للسر بلة ونور الدايم* ومن شايعهم من متهمي *علي صالح*. ويوم الأربعاء *لعبد الباقي* ومن والاه.

يتضجر ويسخط ويقول **بلد مجنونة ذاهبة للخراب. ما ذنبي أنا إن كانوا حمقى** كل فريق يطلب أن يذبح له خضر بهيمة جديدة لا يأتي عليها كلها فيبقى اللحم بين يديه لا يدري ما يفعل به. يفرغ غضبه ليلاً بضرب نساءه الثلاث ويستلقي منهكاً لا يقدر على الحركة.

تبعث حجر *نارتي* وفود الصلح لكنها ترتد إليها خائبة. الخرق أوسع من ان تدركه خيوط الرتق المفردة.

تنادت القرى القريبة لحل النزاع أو إبقاء جذوته تحت رماد المجاملة حتى تقضي المحكمة بما ترى. مازال *علي صالح* نزيل حراسات الشرطة وينتظر تحويله إلى العاصمة ليُعرض على المحكمة.

سرت الحمير من أنحاء الريفي مرة أخرى إلى *الكونج* تحمل وجوه القوم والمطاعين فيهم. اجتمعوا في منزل أستاذ مدني صباح

يوم جمعة ليقرروا صلحاً يشكون في وقوعه. أولم لهم أستاذ *مدني* بلحم باعه إياه خضر هو بقية من ذبيح الثلاثاء والأربعاء البائر. وحضر د. *إبراهيم* دون دعوة إذ عد جلسة لوجهاء الريفي مكانه الأصيل لا يحتاج إعلاماً لحضوره.

ملأت العمائم البيض الديوان واستراحت على الحيطان العصي دلائل الزعامة وتناثرت على عتبة الباب أحذية الحضور جوار أباريق الماء البلاستيكية. أكلوا ملياً ثم تبادلوا المزاح على رشفات القهوة والشاي ثم شرعوا في تفاصيل الصلح.

نور الدايم – الذي تزعم فريق أعداء *علي صالح* وأزاح *السر بلّة* الضعيف عن المقدمة – قال في غضب "**الجريمة ثابتة لا شك فيها. دم *الشامة* في عنق *علي صالح* ومن آزره**"

اعترض عبد *الباقي* أن الاتهام جائر وسببه الحقد والضغينة.

حاول وفد الصلح أن يجمعهم على تجاوز العداء حتى تفصل المحكمة في الأمر. لكن عبد *الباقي* أعلن أنهم لا يعترفون بالمحكمة.

"**لم يبقِ إلا أن تقضي محاكم المدينة في شئون بلدنا. ماذا يعرفون عنّا ؟ إنما هو ذلك العجل عوض *الكريم* يصطنع أدلته تلفيقاً إكراماً لكم. لن ننسى أن جدة أمه قريبة *السر بلّة*. إن كان الرحم لم يقارب بينهما قديماً فإنه يفعل الآن**".

ثم أعلن في فخار **غداً السبت ستطلق الشرطة *علي صالح* بالضمان حتى موعد المحكمة. نجح المحامي في الحصول على إفراج بضمانة. لكنها ستكون المرة الأخيرة التي يلمس فيهما**

شرطي *علي صالح*. حين يرجع لن يجرؤ أحد على التعرض له. سنموت دونه. جلدنا لا نجر فوقه الشوك".

خبا *السر بلّة* في مجلسه وتضائل حتى كاد يذوب في كرسيه. خبر الإفراج عن خصمه كان قاصمة له. لولا بقية من ثبات يستمده من *نورالدايم* لعلا صوته بالبكاء. *نورالدايم* نفسه ارتبك وداخلته خشية من انتقام العربجي الشرس. تدخل *د.إبراهيم* رافعاً عنه حرج التردد في إجابة مفاجأة *عبدالباقي* فقال ممتعضاً **لا يهمنا الإفراج. القانون هو القانون ويوم تستدعيه المحكمة سنسلمه إلى قدره. إن كان بريئاً عاد فأكرمناه واعتذرنا له ، أو ينفذ فيه أمر الله".**

صاح عبد *الباقي* مغاضباً **تسلم مَنْ يا زربون يا مجنون ؟"** وهب إلى عصاة قربه لولا أن تكالب عليه الناس فغلبوه.

قفز *د.إبراهيم* فزعاً من هياج عبد *الباقي* وصاح مرتعداً "**أنا زربون ؟ أتقول لي هذا ؟**

كرر له عبد *الباقي* بين يدي القوم وهم يمسكون به أن ينفلت منهم " **زربون وباطل. قف مكانك وأنا أنزلك منزلتك التي تستحقها".**

د.إبراهيم لم يكن محبوباً في *الكونج* لكن أحداً لم يجرؤ أن يخاطبه كما فعل عبد *الباقي* ذلك اليوم.

منذ عاد من مهجره في خليج العرب وترك العمل في الجامعة أعلن *د.إبراهيم* نفسه زعيماً في الكونج دون مشورة من أحد. ومضى يطلب معاملة الناس له على هيئة تعامل الرجرجة

مع العالم الذي أكرمهم بالمكث بينهم. إن دخل مجلساً ترقب أن يتلقوه قياماً، فإن لم يفعلوا غضب. يكتب كثيراً مقالات في صحف لا يحفل أحد بقراءتها، لكنه يبعث لشراء الصحيفة من المدينة ويقص منها ما نشر له ويطوف به المجالس يقرأه على الناس ويتبسم إعجاباً بذكاء ما أشار إليه ويمدح حسن منطقه. ولا يفوته أن يشرح بعض عبارات وألفاظ يعرف أن الرجرجة من أهل *الكونج* لن يفهموها.

هو شخص لطيف مسالم، لكنه متعنت شديد الاعتداد بنفسه ويرى له حقوقاً لم يشاركه الناس في تقديرها. لذا عدته *الكونج* من لطائفها.

أمّا في يومها ذاك فقد فُجِعت حين هب إليه عبد *الباقي* شاتماً ينوي ضربه.

حتى ظرفاء المجالس لم يسلموا من هذا الجنون ؟ لا بد أنها محسودة. إحدى قرى الريفي حسدتها على ما هي فيه من بال هانئ فبدلّت حالها وحسرَتها في بنيها. سيحتاج *لوراريق* الشيوخ لكثير من الذكر والبخور ليكفوا عنها العين التي لحقت بها.

حشر د. *إبراهيم* قدميه في حذاءه محتداً وغادر منزل أستاذ مدني وهو يبرطم غضباً أن مكيدة حيكت له بجلسة الصلح. سيظل لوقت طويل مصمماً أن مقدم وفود القرى المجاورة كان حيلة انطلت عليه لحسن نيته مقصدها أن تتم إهانته أمام زعماء الريفي ووجوهه. يقول "**كلها كانت تمثيلية رديئة الإخراج. راودني الشك فيها حين رأيتهم يتمازحون وهم يتناولون الطعام لكني استبعدت**

ذلك. لم يكن بينهم عداء إنما قصدوا أن يجعلوا مني سخرية في الريفي". و لن يفلح *مالك زيادة* – أحد قلة يأوي إليهم د. *إبــراهيم* في *الكونج* ويوده – في تغيير هذا الرأي رغم جهده.

[١٤]

إنه الجنون ولا شيء غيره.

العبث في أعظم تجلياته. هل لهذه الدنيا منطق ؟

خرج *نور الدايم* إلى الدكان يطلب تأكيد الخبر الذي سمع. العجائب لا تنقضي والجن الكافر الذي حل *بالكونج* لن يتركها على حالها. السعداء هم الذين ماتوا حين كانت *الكونج* نفسها. أما اليوم فلا شئ على حاله.

وجد الجلوس يغشاهم وجوم الدهشة. عبد *الباقي* كان محتبياً تحت العمود يهز رأسه شارداً.

توجه نحوه وسأله عن الخبر.

رفع إليه عبد *الباقي* عينين لا تريان وقال " **لقد تراجع عن إنكاره**".

ما سمعته إذن صحيح !!

المجنون يصرخ طالباً الإعدام بلا محاكمة

"**اللهم يا مثبت العقل** غمغم *نور الدايم* وهو يتكئ إلى العمود.

قال عبد *الباقي* " ***عوض الكريم*** **أرسل يقول إن** ***علي صالح*** **رفض إطلاق سراحه. اعترف بقتل المرأة وطالب بإعدامه. قال انه مذنب ولا يريد إلا أن يموت في هدوء**

اخرج *نورالدايم* علبة سعوطه وتناول منها كتلة حشرها في شفته ونفض ما تناثر عنها على جلبابه. مد عبد *الباقي* يده إليه فناوله العلبة. فتحها شارداً وقبض منها قليلا ثم أنساه الذهول فظل على حاله ممسكاً العلبة في يد والسعوط في أخرى.

خرج *مالك زيادة* من الدكان وأزاح أحد الجلوس ليأخذ مكاناً قريباً *لنورالدايم* وسأل بصوت خافت كأنه الهمس "**ما العمل الآن؟**"

نظر *نورالدايم* محتاراً إلى عبد *الباقي* الذاهل وقال **هذا يغير كل شئ**

أعاد عبد *الباقي* السعوط إلى العلبة ثم مدها إلى *نورالدايم* وقال "**يغير كل شيء فعلاً**".

تحدث أكثر من واحد عارضاً الصلح بين عبد *الباقي* و*نورالدايم* حتى يستبين الناس جديد الأمر. قال عبد*الباقي* ساهماً ***نورالدايم* أخي وصديقي وليس بيننا إلا كل خير**

أكد *نورالدايم* بحماس **طبعاً. عبد*الباقي* أخي وطول عمرنا أحبة خُلّص**".

ابتسم *مالك* ابتسامة ساخرة جاهد أن لا تظهر وهو يرى حماس *نورالدايم* في إنكار خصومته مع عبد*الباقي*. هكذا هو دوماً. يدور مع الحياة ويلبس لبوسها.

قال عبد *الباقي* " **لابد من الذهاب إلى المركز لمقابلته**

نظر *مالك* إلى *نورالدايم* يتردد فمال إلى إحراجه. هتف **هذا رأي سليم. و*نورالدايم* سيكون على رأس وفد لذلك. ففي النهاية نورالدايم زعيم كبير**

ابتسم *نورالدايم* في تواضع سعيد ونظر إلى *مالك* ممتناً لمدحه. قال " **لنبدأ بإخبار الناس حتى لا نفوت الفرصة على أحد الراغبين في الذهاب**

استحسن الجلوس رأيه وبعثوا إلى أستاذ مدني من يطلب منه أخبار *الكونج* عبر ميكرفونات المسجد.

اقترح *مالك زيادة* إرسال أحد إلى *كلّرو* المجاورة لإحضار سيارة. فالسيارة الوحيدة الموجودة في *الكونج* كانت هي سيارة *السر بلة*. استمهله *نورالدايم* حتى يعرفوا عدد الراغبين في الذهاب، فربما احتاجوا أكثر من سيارة.

بعد دقائق سمعوا شخشخة ميكرفون المسجد ثم تنحنح فيه أستاذ مدني وقال **بسم الله الرحمن الرحيم. سيتوجه وفد لمقابلة علي صالح في قسم البوليس. من يرغب في مرافقة الوفد عليه الحضور إلى دكان مالك زيادة .. بسم الله الرحمن الرحيم. سيتوجه وفد**

لم يرض *نور الدايم* أنه لم يذكر اسمه كقائد للوفد لكنه تجاوز عن ذلك مكرهاً.

توافدت *الكونج* حتى نسائها إلى دكان *مالك*. *السر بلة* كان من أسرع الحضور. حلف يميناً غليظاً أن يحمل الناس بسيارته. شكره عبد *الباقي* على مضض.

من بعيد رأوا د. *إبراهيم* يمشي متمهلاً كمن يبحث عن مكان لقدمه. اقترب من الدكان ووقف متكئاً على عصاه. ألقى سلاماً

فاتراً وهو يبحث ببصره في وجوه الوقوف. ما أن عثر على *مالك* حتى ابتسم ابتسامة كتكشيرة وهز له رأسه. التقط *مالك زيادة* – بذكاء – رغبة د. *إبراهيم* في اصطحاب الوفد. ما أن أوقف *السنبلة* سيارته أمام الدكان حتى أسرع *مالك* بفتح باب السيارة وينادى د. *إبراهيم* إلى المقعد الأمامي. ارتسم الفخر على وجه د. *إبراهيم* وهو يمشي بتؤدة إلى السيارة. ذات النظرة التي ارتسمت على وجهه يوم اختارت لجنة تسجيل التموين ساحة بيته – تحت شجرة *دقن الباشا* للاجتماع بأهل *الكونج*. ذلك الاجتماع الذي شهد فضيحة *الطاهر نقد* الكبرى حين وقف ينتقد رئيس اللجنة وأنهم يأخذون نصف تموين القرية لدعم حزبهم الحاكم. رئيس لجنة التموين رد على الإتهام الذي صفق له الناس بأن كشف أن *الطاهر نقد* سجل عدد سكان بيته أكثر ثلاث مرات من العدد الحقيقي. قال رئيس اللجنة " **لا يضرك إن كنا نأخذ منك النصف ما دام يتبقى لك أكثر من حقك القانوني**

كانت فضيحة عظيمة للطاهر. و هاجمه كل من صفق له حين بدأ كلامه. ورغم انه أنكر التهمة لكن رئيس اللجنة وعد بإرسال المستندات التي تثبت تزوير *الطاهر نقد* في أقرب فرصة. الفرصة القريبة لم تأت لكن هذا لم يمنع الشماتة والتقريع الذي تعرضت له سمعة *الطاهر* في كل الريفي.

تحركت السيارة وقد اكتظت بالركاب حتى مالت إلى الخلف. في صندوقها الخلفي تشبث أكثر من تسعة عشر راكب. ومشت

تئن فوق الرمال شمالاً نحو المدينة. الفضول والعجب كانا مع الركاب. والثناء على كرم *السر بلّة* لم يتوقف. حتى بعد أن وصلت السيارة إلى المدينة وأخذ *السر بلة* من الركاب حساب المشوار لم يروا في ذلك عيباً ومدحوا حسن خلقه الذي حملهم به إلى مقصدهم.

نزلوا أمام قسم الشرطة وحاول *نور الدايم* أن يسمح *لعبد الباقي* أن يتقدمه لكن *د. إبراهيم* سبقهما ودخل إلى مكتب الضابط رافعا رأسه وقدم نفسه بسرعة. خلفه اضطر البقية إلى التقدم صامتين وهم يملئون باحة القسم وتخلف عنهم *السر* في سيارته.

قسم الشرطة يقع جوار ضفة بحر النيل. على حيطانه طلاء أزرق وله أبواب من قضبان الحديد القصيرة. به باحة واسعة تظللها أشجار النيم أمام أربعة غرف وبرندتان. في البرندة التي تواجه الباب دكة عالية تقسمها إلى نصفين هي دكة مكتب البلاغات. من خلفها برز *عوض الكريم* وهرول نحو أهله. بعد أن قطع نصف المشوار تنبه إلى مكانته فأحكم خطاه وتروى. كان يرتدي زيه الرسمي حاسر الرأس وفي قدميه شبشباً لا يبدو رسمياً البتة.

مكتب بلاغات القسم لا يشهد بلاغات كثيرة. لذلك يحاول الرائد رئيس القسم أن يحرك العمل بتنظيم حملات لضبط صانعات الخمور البلدية كل بضعة أسابيع. الحملة عادة ما تضبط البائعات الجديدات أو اللائي لهن مشاكل مع أحد العساكر. ويتم

التحفظ على المشروبات في إحدى الزنازين لمدة يومين قبل تحريزها. مهلة اليومين تكون فرصة للعساكر لتمييز الخمر الجيد عن الخمر الرديء. يتم تحريز الرديء في محضر رسمي ويدخل الجيد إلى أسفل دكة قسم البلاغات ليتم بيعه من هناك.

يعرف مدمنو المدينة أن خير الخمور هي تلك التي يبيعها قسم البوليس بعد حملة كبرى.

رحب عوض *الكريم* بأهله وقادهم إلى مكتب البلاغات ليجلسوا فيكرم مقدمهم.

قال عوض *الكريم* **في الصباح فوجئنا به مكوماً في الركن يبكي. كان منهاراً تماماً. قال انه قتل *شامة*. قال انه لا يريد دفاعاً ولا شهوداً ، هو مقر بذنبه تماماً**

مر صبي قصير ناداه عوض *الكريم* في خيلاء " **شاي هنا يا ولد !**

ثم التفت إلى أهله يقول **الضابط غضب جداً. مرة يعترف ومرة ينكر ثم يعود فيعترف. طلب منا أن نتأكد من أقواله.**

هز القوم رؤوسهم في تواطؤ من فهم ماهية التأكد الذي تم.

البوليس علّق *علي صالح* إلى سقف الزنزانة وضربوه بحثاً عن الحقيقة.

خرج د. *إبراهيم* من مكتب الضابط وهو يبتسم في إشراق. تقدم فصافح عوض *الكريم* في استعلاء وأبلغه سماح الضابط لهم بمقابلة *علي صالح*.

غمغم *عوض الكريم* في سخط وتبادل نظرة حنقى مع عبد *الباقي* وأشار إلى جهة الحبس "**جداً. تعالوا من هنا**

مشوا داخل دهليز سيئ الإضاءة فأحدثوا ضجة رغم صمتهم.

نور الدايم كان يتأمل مربعات البلاط على الأرض ويحرص أن يضع قدمه داخل بلاطة واحدة لا تتجاوزها.

قادهم *عوض الكريم* إلى زنزانة يتيمة. خلف قضبانها كان *علي صالح* يجلس على الأرض وهو يتناول طعام الغداء. فتح *عوض الكريم* باب الزنزانة بعد تردد. دخلوا وعانقهم *علي صالح* فرداً فرداً. تمهل في عناق عمه وترقرقت عينيه بدمع شاحب.

جلسوا على الأرض.

سألهم عن *الكونج* وأخبارها في الأيام الماضية. أجابوه إجابات متناثرة وهم ينظرون لبعضهم في حرج. سأل **هل تطعمون حمارتي؟**

قال له عبد *الباقي* " **لقد أخذتها عندي في الزريبة**

وعربة الكارو ؟

مازالت مكانها أمام البيت

هز رأسه في عدم رضا وقال " **سيأكلها النمل الأبيض. ارفعها من مكانها**

ثم نظر في وجوه الجلوس وقال " **لا أرى فيكم صاحب سيارة. كيف وصلتم إلى هنا ؟**

تنحنح *نور الدايم* في حرج وقال " **وصلنا** والسلام".

حدق به ملياً حك خده بظفر سبابته وكرر **وصلتم والسلام!!**

التلفت إلى عمه عبد *الباقي* وأعاد سؤاله " **كيف وصلتم هنا يا عمي ؟**

أجابه عبد *الباقي* وهو يهرب بعينيه **حملنا** *السر بلة* **مشكوراً".**

ابتسم مستخفاً وسأل **ولماذا لم يدخل معكم ؟** "

لم يجب أحد فتمدد الصمت لفترة. همهم أحدهم يطلب سعوطاً من آخر. ثم دارت العلبة بينهم.

شرد نور *الدايم* ينظر إلى صراصير تتدافع عند ركن الزنزانة.

بدأ علـي *صالح* يدندن في صوت خافت. ثم ارتفع صوته قليلاً فميزوا ما يغني.

"*يَمّه أنا زولي ما جا .. يا يُمّه أنا زولي ما جا*

سأله د. *إبراهيم* **ما هي الحكاية يا علي ؟**

كف عن الغناء ، ابتسم في تعب ظاهر **لا حكايات. إنها الحقيقة**

انفعل عبد *الباقي* **هل هناك داع لكل هذا ؟ تتأرجح في أقوالك وتسبب مشكلات بين الناس لا معنى لها. ماذا تجني من كل هذا ؟**

لا أجني شيئاً ولا أريد أن أسبب مشكلة لأحد. أنا معتـــرف بما فعلت وأرغب في مواجهة مصيري".

سأله *نور الدايم* في تردد **هل أنت مجنون ؟**

التفت ينظر إليه. حدق به طويلا قبل أن يجيب **لا أظن**

لغطوا وبكّتوه بكلمات قاسية.

تراجع بظهره إلى الجدار وهمس **أنتم لا تفهمون**

صرخ عبد *الباقي* **اشرح لنا إذن**

هز رأسه معترضا **لن تفهموا**

هب عبد *الباقي* غاضباً وتبعه د. *إبراهيم* الذي قال في هــدوء "**أنت تضيع زمننا**

أغمض *علي صالح* عينيه حتى لا يراهم.

قال **أنتم لديكم الكثير من الزمن. لكنكم لن تفهموا".**

نظروا إلى بعضهم وصاح فيهم عبد *الباقي* بالخروج. وهــم يتقدمون إلى باب الزنزانة سمعوا *علي صالح* يهمس **أنــا فقــط أريد أن أنام**

[١٥]

لا يشغل *الكونج* إلا نميمتها ، فالوقت صيف.

الذُرة حُصِدت والفول المصري لم يحن لزراعة بعد. والتمر لا يطلب عناية فهو يرعى نفسه. أمّا المشروع الزراعي فمتعطل كحاله دائماً ونميمة مقتل *شامة* أكثر إغراءً من تنازع في شأنه. ما الذي يمكن أن يكون جديداً في نزاعات المشروع المتكررة. سيتشاجر *الطاهر نقد* ونور *الدايم* كعهديهما ، ويُحسم النقاش بأن يقسم *زيادة* حسن بالطلاق على رأيٍ تكون له الغلبة.

في مرة يتيمة حدث تطور مذهل في هذه النزاعات فسب *الطاهر نقد* الدين *لنور الدايم*. حين خرجت *الكونج* من الجامع – حيث تعقد الاجتماعات – قال *مالك زيادة* ساخراً

إنها المرة الأولى التي يسب فيها أحدهم الدين ولا تكتبها عليه الملائكة سيئة".

يقول مبرراً ذلك

"لن يكون هناك ملاك يتوقع شيئاً كهذا في الجامع ليحضر معه دفتر السيئات. غالباً سيكتفي – بعد الدهشة – بتسجيلها كملاحظة على هامش دفتر الحسنات

لكن مثل هذا الأمر نادر لا يتكرر كثيراً، لذلك فضلت *الكونج* خبر مقتل *شامة* على ما سواه وإن كانت تجهد أن تخفي اهتمامها عن جاراتها القرى خشية شماتة حادثة.

تتدحرج الأيام وتتسع النميمة أو تضيق.

هل يمكن أن يتغير شيء ؟

بحر النيل هو ذاته ، والصحراء أعلى *الكونج* تمتد من عند *فوز الصبايا* حتى ما يشاء الله. والتمر كالنيل خالدٌ .و ما بعد الصيف إلا الشتاء. أمّا الناس فهم الناس.

يتقلّب موقف عبد *الباقي* وأخوته مرات فيشعلون القرية بالخصومة ثم يعودون للسخط على ابن أخيهم فتهدأ *الكونج*

مالك زيادة سيستغل لوثة النميمة تلك ليستقدم السعوط من المدينة الريفية ويبيعه في عبوات أكياس بلاستيك ويسميها " *أكياس علي صالح*

النسوة في مطابخ الطين حين يسمعن خبر رجاء *علي صالح* الموت طلباً لراحة النوم سيرثين له. أكثر من واحدة ستقول وهي تكفكف دمعات متفلتات

واشريري .. مسكين !! ليتهم يرحموه

لكن إحداهن لن تفسر تلك الرحمة المطلوبة أهي بالعفو أم بالموت الذي يطلب.

يعرفون جميعاً أن قاتل الروح لا ينام. و تزوره الزبانية ليلاً في هيئة غربان تهاجم رأسه فتنقره حتى يصبح. فكن النسوة يرثين لسهره تحت نقر الغربان.

الأطفال اخترعوا لعبة أسموها *حلمي وحلمك* استلهموها من الحلم الذي يقتل.

و حين يشدد دائن على *بكري* العربي في طلب نقوده سيقوده الأعرابي الماكر في الحديث حتى يقع به على شرك النميمة فينسيه دينه.

لماذا تجزع على المال ؟ الدنيا لا أمان لها. لا أحد يعرف إن أصبح أين يمسي وإن أمسى على أي حال يصبح. ألم تر إلى *شامة* باتت مطمئنة فأصبحت جثة. و*علي صالح* المسكين نام فاستيقظ في زنزانة

ثم يتمهل قليلاً قبل أن يسأل ضحيته في فضول مصطنع

هل سمعت جديداً عن *علي صالح* ؟

يأتي الجديد في معية *عوض الكريم* العسكري ذات يوم.

يدخل القرية كعادته متبخترا فخوراً بما له من أهمية بعمله. يقصد إلى بيت *نور الدايم* فيجلس إليه ثم يخرجان سوياً. *نور الدايم* يهرول عجلاً على حين يمشي *عوض الكريم* متأوداً. هو رجل شرطة متمرس فلا شيء يدفعه للهرولة في شوارع القرية. يدخلان بيت عبد *الباقي* فيغيبان زماناً.

لكن قبل خروجهما سيتسرب الخبر إلى كل البيوت. فعبر الحيطان ستتناقل النساء الخبر، ثم يسري به الصبيان، قبل أن يتلقفه الكبار ويمرون به على الدكانين. بعضهم سيحمله مسرعاً إلى الجنائن ليخبر المزارعين هناك.

سيتم تحويل *علي صالح* إلى العاصمة للمحاكمة.

مجبراً سيصعد عبد *الباقي* إلى العاصمة وهو يزمجر بشتم ابن أخيه. كان غاضباً على تركه طابونته لمساعده الذي لا يثق به.

رسائل العاصمة تأتي تباعاً فتلوكها *الكونج* وتقتاتها.

إنها أيام *علي صالح* الأخيرة بلا جدال.

المحاكمة تمضي سلسة هينة لا يعيقها إنكار أو ينقصها دليل.

و ليس من محامي دفاع يسأل عن دافع الجريمة.

البائس يجتاز مسافات الحياة مصراً عجلاً ويقترب عن حلم الموت.

و يوم جاء الخبر بطلب أولياء الدم إلى المحكمة حبست *الكونج* أنفاسها توتراً.

في ذلك اليوم مرة أخرى يرتفع الصراخ من بيت *اسر بلة* فيتعوذ الناس من شر تلك التلة.

لكن *الكونج* تعرف هذه المرة ما هناك.

السر بلة يضرب *رضوة جبريل*.

حليمة زوجة خضر الريافي ستقول

يا لها من امرأة طيبة القلب كأمها

رضوة فجعت *الكونج* أنها ترفض القصاص. زوجها صرخ أمام الناس

والله لأقتلنك يا زربونة

ثم هجم عليها يضربها وهو يبكي.

مالك زيادة سيستغل حضور *ياسمين* ابنة *نـــور الـــدايم* إلـــى الدكان ليسألها

هل تسمعين هذا الصراخ ؟

تنظر إليه *ياسمين* بعينيها الواسعتين كعيني بقرة أبيه الحلوب وتقول

إنها *رضوة* . يحاولون إقناعها بطلب القصاص

لن تفعل

" **لماذا ؟**

يتنهد بحرارة وينفث براكينه قائلاً بلهجة موحية

انه الحب. لن ترضى موت حبيبها. هل تعرفين الحب يـــا *ياسمين* ؟

ستقطب كأي عذراء لا ترضى الكلام القبيح حين يقال أمامها وتضم إليها كيس المشتريات وتتفلت من باب الدكان كنسمة هاربة بعينيها الحلوتين.

ينظر *مالك زيادة* إليها فيرى في قوامها بيتاً وأسرة وأطفـــال وحياة هانئة.

يتنهد سعيداً بما بثه ، وتفكر هي هل هو كـــأولاد المدرســـة سريع الفراغ.

سيرتفع صراخ *رضوة* أكثر من مرة ذلك اليوم.

سيضربها *السر بلة* ونور *الدايم* وأولاد *الله جـــابو* ، وحتـــى *الطاهر نقد* سيهوي بعصاه محاولاً ضربها لكنه سيصيب *السر بلة*

في ساعده. بعض سيقول أنه لم يخطئ مقصده وإن إدعى غير ذلك. كما يقول *نور الدايم* " *من يصدق الطاهر نقد ؟*

إذ يحين وقت سفر أولياء الدم إلى العاصمة سيقررون تجاهل *رضوة*.

نور الدايم سيسافر معهم ويشهدون أمام القاضي بعد الحلف على كتاب الله أنها أوكلته عنها.

و حين يسأله القاضي عن خياره لن يتردد *نور الدايم* في أن يقول بحسم

القصاص

ستحمد *الكونج* ، حتى أعمام *علي صالح* ، هذا الموقف.

فالأخلاق لا تقبل عبث النساء الخائنات وقلوبهن اللعوب.

[١٦]

الحكايات تأكل نفسها حتى تذبل.

ربما أشعلتها شائعات متفرقة عن عودة *شامة* ليلاً وطرقها باب بيت *السر بلة* مراراً كي يُفتحِ لها لكن ابنتها وزوجها يجبنون.

تتحدث *الكونج* عن هذا زماناً ثم تخبو الأحاديث.

عبد *الباقي* يحكي عن جثمان *علي صالح* حين استلموه. كان طويلاً كأنه مئذنة جامع.

قال أن عنقه استطال جداً.

خضر الريافي ثرثر عن صعوبة كسر رقبة إنسان. هو جزار ويعرف ذلك جيداً.

لكن الحكايات تخمد ككل شيء.

سيقولون إن *علي صالح* قتل *شامة* لأن علاقة قامت بينهما و طلبت منه أن يكف عن ابنتها.

آخرون سيزعمون أنها استودعته ذهبها ليكون بمنأى عن يد زوج ابنتها *السر بلة*، فخانها فيه ثم قتلها حين طلبته وديعتها. لكن حد *الزين* ستؤكد أن المرحومة كانت أفقر من كلب ضال.

نور الدايم سيهمس إن المقصود بالقتل كان *السر بلة* لكن القدر نبا بسكين القاتل.

و د. *إبراهيم* سيحاول أن يكون مختلفاً فيختار اتهام *السر بلة* بالجريمة، لكن حتى أعمام *علي صالح* لن يصدقوا ظنـــاً متهافتـــاً كهذا.

حليمة ستزعم أن *علي صالح* حلم بالملائكة تغسله و تطلبـــه للجنة فاختار أن يموت شهيد إدعاء الناس و أكاذيبهم.

ستشتعل الحكايات، ثم تخمد ككل شيء.

ثم يتسرب عن الشيوخ *الوراريق* أن سر ما حدث في علم الله و محاولة الإطلاع عليه كفر. و يطلبون من زوارهم أن يتركـــوا الأسطورة تمضي للغيب الذي منه نشأت. بلا تفسير.

و يتهادى الزمان.

النخيل يسل ثماره ثم تخضر ويلهبها الحر فتصفر ثم تستوي تمراً.

الطاهر نقد يصبح أشد حدة ويلتهب طبعه فيعلو صراخه كـــل ليلة يدعو على *الكونج* ومن بها بالخراب.

يتحدث النساء أن *رضوة جبريل* حبلى.

يتمنونها فتاة لتسميها *شامة* ويخـــشون أن يكـــون صـــبياً فتسميه *علي*.

يترفع منسوب النيل مع تراجع الصيف واستواء الخريف.

يتخبط *الطاهر* في فناء داره خروجاً إلى الطريـــق. وحـــين يسمع المارة يتخوفون من الفيضان ينادي ربه

اللهم فيضاناً تلمس أمواجه السحب"

لكن النيل يتراجع كعهده ويدخل الشتاء إلى الدنيا فتياً مزهواً بنفسه.

تتذبذب حكاية *علي صالح* على قمة الاهتمامات ثم تأخذ في التراجع.

فالزمان دائري.

[...]

في ليالي الشتاء يلتئم شباب القرية داخل دكان *مالك زيادة* يستدفئون بالمسامرة وأغطية الصوف.

يتراصون على الأرض الترابية فيكتظ بهم المكان. بعضهم يتقرفص على جوالات التمر في ركن الدكان إن لم يجد له مجلساً على الأرض.

تدور بينهم السجاير يمصونها وينفثونها دخاناً.

أحيانا يجلسون لساعات لا يفعلون شيئاً. فقط ينظرون إلى أعلى حيث يتكثف دخان السجاير كسماء حبلت فتدنّت ويغني جهاز التسجيل ولا يسمعه أحد.

و أحيانا يأخذون في النميمة والحكي عن ما كان وتفاصيل أيام القرية.

يحكون عن الزراعة، ومحطة الكهرباء الريفية، وسعر التمباك ، ومنصرف المشروع الزراعي، وعشق البنات، ومنسوب بحر النيل، وأغاني الطمبور ، والحشرة القشرية ، ولجنة الزكاة، وشجارات البيوت، وسيارات السوق الأسبوعية ، وفضائح أستاذ مدني، ومضاجعة المراهقين للجحوش في الزرائب، والزحف الصحراوي .

وسطهم يجلس *معاوية يس* المعلم القادم من عاصمة البلاد.

ألقته الوزارة إلى الريفي من أسبوعين وظل يتخبط في مكتب التعليم بالمدينة الريفية حتى تم توزيعه إلى مدرسة *الكونج*.

دخل القرية عصر يوم قادماً مع سيارات السوق. استقبله أستاذ مدني وأنزله صالون بيته الخارجي.

في أيامه الأولى حاول أستاذ *معاوية* استكشاف وسائل الترفيه المناسبة لشاب في مثل عمره. لكن كل محاولاته المدنية انتهت إلى الفشل فاضطر إلى قبول دعوة *مالك زيادة* بقضاء الأمسيات في دكانه.

بعد أيام قليلة عرف أن لديه ما يأسر به المستمعين من الشباب.

حكايات الجنس في العاصمة كانت تجذب انتباه المستمعين أكثر من أي شئ آخر يمكن أن يحكيه لهم. فطاف بهم شوارع المدينة يحكي عن بنات الجامعة اللائي يخرجن يتسكعن طلباً لرفقة عابرة. أخبرهم عن الجنس الفموي فاشتعلوا حتى أحسوا الصيف في أجسادهم. قلّب أمامهم دفاتر الجسد وفنون الجماع التي يعرفها فعدّوه مرجعاً.

في ليلته تلك جلس يحدثهم عن المداعبة. قال

من المهم أن تلاطف الأنثى. هناك نقاط إثارة عديدة في جسد الأنثى لكني أفضل حلمة الأذن

تقاربوا نحوه حتى لا تفوتهم كلمة.

تمسك حلمة الأذن بشفتيك وتمصها برفق. وتلعقها بلسانك مراراً. ثم تضع لسانك داخل فتحه الأذن فجأة وتسحبه. بعدها تداعب حلمة الأذن بأسنانك رويداً".

تنهد بكري العربي بصوت مسموع فضحك *مالك زيادة* وقال:

حاذر يا أستاذ. لو تعلّق *بكري* بإذن امرأة فلن يتركها حتى تخرج في فمه. حينها سيقول أنك من علمته هذا

ضحك الجلوس ضحكات خشبية متوترة وتبادلوا قفشات مرتبكة. تحدى بعضهم *بكري* أن يهب واقفاً فضم فخذيه على جسده بقوة وزمجر.

عدّل *معاوية يس* جلسته وأشعل سيجارة وسأل *مالك زيادة*

"ماذا عن *الكونج*. أليس عندكم أخبار كهذه تستحق الحكاية؟".

في لمعة عينيه وهو يسأل لعبت صورة *ياسمين نور الدايم* التي لمحها أول أمس عند البئر. لم يخطئ قراءة رغبة شفتيها. لكنه لم يكن يعرف بعد تفاصيل العلاقات في *الكونج* فأحجم عن السؤال المباشر.

تبادل الجلوس نظرات الترحيب بسؤاله. هز أكثر من واحد رأسه. بكري العربي قال

في هذه القرية حكاية عجيبة

طلبوا من *مالك* أن يقصها عليه.

وقف *مالك* وقفز على جوالات التمر المتراصة في ركن الدكان. قبض على طاقيته بكفه مفتوحة وهرش شعره الأكرت. قال

" تلك قصة لا تقل عن قصص بنات العاصمة

استحثه *معاوية يس* وسلّمه اهتمامه كاملاً.

قال *مالك*

سأحكي لك أخطر قصة حدثت في *الكونج*. شيء لا يُصدق. لكنه حدث

سأله *معاوية* بصوت متحشرج

قوية ؟

جداً استمع بتركيز فربما لن تجد من يحكي لك هذه الحكاية غيرنا. فالناس يخجلون منها هنا لأنها تسئ لسمعة قريتنا"

وضع *معاوية يس* كفه مفتوحة على صدره وقال

أنا الآن من أبناء القرية. أليس كذلك ؟

أيدوه وأعلنوا له أنه منهم وعليهم ولا أسرار بينهم.

قال *مالك زيادة*

إنها حكاية امرأة عاهرة تخجل *الكونج* من ذكرها. *الكونج* قرية طيبة مباركة. لكن هذه المرأة كادت تلوث سمعتها الحسنة. حدثت هذه الحكاية منذ سنوات قلائل

يحشد معاوية يس نفسه في الإصغاء.

"المرأة كانت معلمة. أستاذة مثلك في المدرسة" .

صمت برهة وبلع ريقه وقال

" **كان اسمها ست *ابتسام***

ثم شرع يحكي بدقة وتحري شديدين تفاصيل أخبار ست *ابتسام* المعلمة. أسوأ من مر *بالكونج*.

يستمع الأستاذ الغريب وهو يرثي حظه أنه لم يدرك ذلك الزمن السعيد. وحين يسمع اسم أستاذ مدني يضحك في تعجب.

" **لكنه معلم وشيخ الجامع !!**

يبربر *مالك* بشفتيه مستخفاً ويواصل الحكي.

يشرد *معاوية* ببصره خارج الدكان ويحدق في بقعة الضوء الهاربة من دفء الغرفة إلى صقيع الليل. ويحاول أن يرسم صورة *لست ابتسام* من خيالات الظل المنعكسة على الرمال لكنه يفشل. فحكايات *مالك زيادة* تخبره أن المعلمة أجمل من كل أوهامه وأكثر نزقاً من أن يحيط بفسقها تصوّره.

حين تنتهي الجلسة ويخرج من الدكان سينظر إلى القرية الساكنة في الظلام يغلفها البرد الصحراوي. أشباح البيوت المتكالبة على بعضها كأنها تتقارب طلباً للدفء.

سيبلع ريقه ويفرك ساعديه وهو يفكر

" **يا لها من قرية مملة تلك التي رماني حظي بها. متعتها الوحيدة كانت معلمة غريبة هجرتها منذ زمن**".

يتنهد تحسراً ويمشي مبتعداً عائداً إلى منزل مضيفه.

الكونج تراقبه، في الظلام ، مبتسمة في براءة.

الكونج تحب زوارها الذين يصدقون أحاديث الدكاكين. يكفيها ما مرت به من مصاعب. حان الوقت ليعود كـل شـيء سـيرته الأولى.

لا مزيد من الفضائح.

سترجع كما كانت دائماً. القرية المباركة. حتى وإن حـسدتها جاراتها القرى.

نظرت إلى ضيفها يتعثر فوق كثبان الرمال داخلاً مأواه.

ثم جرّت طمأنينتها وغطت بها بيوتها لتنامٍ هانئة.

كعهدها أبداً.

* * *

(النهاية)

كلمة أخيرة

يدين هذا العمل الذي بين يديك لجماعة لا يحسن أن لا يُعــرف فضلهم ولا يُحمد جهدهم.

عظيم امتناني للأستاذ الروائي **أحمد صبري أبوالفتوح**، والأديب **إيهاب عبد الحميد**، وللأصدقاء الصحفي **حسام محفوظ** ، القاص **أحمد سعيد**، و الدكتورة **عنود رشاد**.

لهم جزيل الشكر على الرعاية والعناية والآراء التي أبدوها فكانت خير معين.

وجزيل شكري لعطاء الأستاذ **صلاح المر** والصديق الفنان **ناجي الزبير الملك**. فقد زين إبداعهما غلاف الرواية.

حمّور زيادة

تجليات أدبية

يجلس القادمون حول الطاهر تُقُد ليحدثهم و يحدثونه.

منذ أصابه العمى أصبح من رواد المؤانسة و الحكي. يضع – عادة – سريره عصراً أمام منزله و يتكئ عليه يعبث بإصبعه في رمل لا يراه لكنه يذكره. ما أن يسمع خطوات عابر حتى يعتدل و يسأل عن القادم. حين يعرّفه العابر نفسه يناديه الطاهر " تعال يا زول. هات خبراً و خذ خبراً".

أدمن تسقط الأخبار و البحث عن الحكايات. يسأل عن منسوب بحر النيل ، والزراعة ، و الحشرة القشرية ، و محطة الكهرباء الريفية ، و شجارات البيوت ، و نميمة الدكاكين ، و سيارات السوق الاسبوعية ، و منصرف المشروع الزراعي ، و عشق البنات ، و لجنة الزكاة ، و أغاني الطمبور ، و سعر التمباك ، و فضائح استاذ مدني ، و مضاجعة المراهقين للجحوش في الزرائب ، و الزحف الصحراوي و امرأة الجبل و هل رآها غيره أحد ؟

الغلاف: سعاد عبد الرسول



ميريت